رواية

# عبرة التاريخ

« الطبعة الاولى — حقوق الطبع محفوظة »

١٣٣٠ — ١٩١٢

# مقدمة

الى عشاق العدل والوطنية . ومحبين الانصاف والمساواه . الى الباكين على مصائب الامم . وكارثات الشعوب . ازف روايتي الاولي التي تبحث في احوال بولاندا في القرن السابع عشر وكيف قام أبرائيائها بها فدافع وانتصر . بل كيف يكون الاتحاد ومبانه . والتآزر وقوته

ومن ثم كيف قسمت تلك المملكة المسكينة بين روسيا والمانيا والنمسا وكيف يتعدي الانسان على أخيه الانسان فيسلبه أغلى شيء لديه وهو حريته

تلك روايتي أول ماأخرجته فكرتي تركتها بلا تهذيب لتكون تذكارا لى من أيام صغرى اذا ما بلغت يوما ما مبلغ الرجال وهو جل ماأريده وتتمناه نفسي .

فعذرا أيها القوم الكرام ان مرت عليكم بعض الغلطات والعذر عند كرام الناس مقبول ؟

المؤلف

# اهداء الرواية

الى روح مؤسف حماة الاسلام . واحلام الاحلام اهدى روايتى وأول ما أخرجته فكرتى

الى تلك الروح التى اختفت خلف ستار الابدية اقدمها — فاذا مانظرت الي فهذه افكارى دليلي على نفسي . وانا ما تودت الا ان اكتب ما أعتقد

المؤلف

﴿ مصطفى نجيب بك ﴾

الكاتب المشهور

تبدو عليك مخايل العظماء ... وتلوح فوقك صورة الحكماء

لله درك والهدي بك مغرم ... كيف اصطبرت على هوى وعناء

احمد زكي ابو شادى

# شيء عن المهدى اليه (١)

لا أصعب وأقسى على نفس الأديب من أن ينعى اليه امام من أئمة العلم واستاذ من أساتذة الانشاء واللغة سيما اذا كان المنعى ممن نصبوا فكرهم على ايضاح الحقيقه وتجليتها فى أجلي المظاهر ، واقفا قلبه على البحث واستقراء مصادر العلل الاجتماعية ومداواتها بانجع الوسائل ،ومعداً ماهو معد من الخير الجزيل والنصح الغالى لأمته فى طيات أسفاره التى ينتظر من المستقبل أن يعاونه فى اخراجها الى أيدى المطالعين فتنشب فيه المنية اظفارها، وتغدو صروح آماله كأنها بنيت على شفير هار

هكذا كان شأن فقيد النثر والنظم المغفور له مصطفى نجيب بك فلقد ألف ثمانية مؤلفات نفيسة وأخذ يشتغل فى تأليف غيرها وكان عاقدا نيته على أن يتولى طبعها بعد انقضاء سنتين من ذلك الحين ، ولكن حل به القدر المحتوم فترك تلك الآثار يعبث بها الدهر بعد ان كان يضن بها . وقد بيع بعد

---

(١) نقلا عن فطرة من يراع في الادب والاجتماع

وفاته كل ما كان فى مكتبته من كتب نافعة ، ومؤلفات غزيرة بالمواد العلمية النادرة ، فوصل الى أهل النبل والفضل أمثال احمد تيمور بك من علماء القاهرة قليل منها ولا سيما ما أنشأه وألفه ، وانتهت جلها الى أيدي افراد تهاونوا بها ولم يراعوا حرمة الادب فنشروا بعضها — كما بلغنى — ونسب اليهم

ولم أقف فى أوراقى على شئ دبجته يراعته سوى بعض ملاحظات استعان بها على تأليف كتاب يبحث فى تاريخ الآثار بمصر واسمه « الخرائب والاطلال المصرية » وآخر فى «حسنات المدنية الاسلامية» غير انها متفرقة وان تكن تدل على قدرة الكاتب وليست سهلة التناول او قريبة المأخذ بل يعسر عليك ترتيبها ومعرفة قصد الكاتب من بعضها والعلاقة التى تربطها بما يسبقها اويليها .

هذا ما لحق بمصنفات ذلك المنشىء المبدع بعد ان سكن القبر وجاور الترب . ولقد كان شاعرا ضليعا واديبا قادراً على خلب الالباب والعقول بسحر مقاله . يجيد الشعر ولا يكثر منه . واذا حرك قلمه بين انامله فما يكتب الاحكمة كهلة ولا

يسطر غير الحق الصريح

واذا رمت ان اصف لك خلقه ذكرت لك الكرم والمروءة والغيرة على الشرف والوطنية الصادقة والولاء الخالص والوفاء باكمل المعاني غير انه كان متلافا للمال لايحسب غالبا حساب العواقب ولذلك ما كان ليبقى خلفه شيئا من الثروة مع انه كان يتناول من عرق جبينه ما يسد هذه الثلمة دون عناء اومشقة .

واني اقتصر للقارىء في هذا الموضع على ما ذكرته الصحف يوم وفاته بمدينه الاسكندرية وانقل من بينها مانشره اللواء الاغر يوم الثلاثاء ١٨ جمادى الاولى سنة ١٣١٩ هجرية

امتدت يد المنون الي عرش الفضل فانتزعت منه اميراً من امراء الكلام . ومليكا من ملوك الكتابة . ملك رق النفوس بعبارة بيانه . وتصرف فيها ببراعة بنانه . حتى كأن قلمه اذا جرى على الطرس جري بقدر مقدور لاتتعدى محتومه في مآخذها ومتاركها . فكنت تراها ان صر استمعت وانصتت . فان وعظ انعظت وان زجر ازدجرت . وان

استفزها لمكرمة فزت . وان هزها لمحمدة اهتزت . هو كاتب تلك الرسائل التى كان ينشرها « اللواء » تارة بتوقيع « الواعظ » وطورا بتوقيع « حاذق » هو المرحوم مصطفى بك نجيب وكيل قسم الادارة بنظارة الداخلية

فقد نامنه طبيبا من اطباء امراض الامم . وآسيا من أساة كلومها ، كان رحمه الله يرى ان خير الدواء لأعضل الادواء تذكير النفوس بجلال ماضيها لتنتعش أرواحها ، وتفكيرها بشرف أصولها وطول منابتها وكرم اعراقها ، ليجرى دم الخير فى عروقها فتتماثل من خمولها ، وايقافها على مجد اسلافها وشرفهم لترفع رأسها ، واحاطتها بما كان لآبائها واجدادها من نفوس للمعالى عاشقة . وهمم فى السمو راغبة . وعزائم في طلب السعادة والسيادة ماضية . لتحمى حميتها . وتهم همتها . فتنشط من عقالها وارشادها الى الصراط السوى الذي نهجوه ونقتفي آثارهم فيه فنبلغ من الغاية مابلغوه : هو المؤلف فى هذا المقام لكتاب « حماة الاسلام »

عدمنا منه عالما من كبار علماء الاخلاق عارفا بما يصلحها

من فسادها ، وبقومها من اعوجاجها ، عاملا لما يؤصل فيها الفضائل ويستأصل منها الرزائل . هو الذى شغله انحراف اخلاق المصريين حتى فى المنام ، واشتغل بتدبير مايقومها حتى فى الاحلام ووضع فى ذلك « أحلام الاحلام »

فقدنا منه مؤرخاً عليما بتقلبات الدهور على الاجيال ، وتصرفات الايام وحسناتها وسيئاتها على الانام ، وله في ذلك أثر حفظه صدر ( اللواء ) وصانته حوافظ القراء عنوانه : « وداع القرن التاسع عشر واستقبال القرن العشرين » ولقد كان رحمه الله مشتغلا بتأليف كتاب فى تاريخ محمد على باشا يتوج به قرنا مضى على حكم مصر واحيائه لما اندرس من معالمها وكان عهد الى بعض اخوانه مهمة الحصول على بعض أمور تتعلق بعمله هذا فى غير هذه البلاد ، وعين له مواضعها ومظان وجودها من « الكتبخانات » ولقد قام له هذا الصديق بهذه المهمة وعثر بجميع ما كلفه بالحصول عليه وترجمه واراد تقديمه اليه فوجده يودع الحياة ، ولا حول ولا قوة الا بالله، فبقيت تلك الآثار في ظرفها المختوم

وافته المنون رضوان الله عليه وهو بين دفتر يناجيه ، وقلم يسيره ، وطرس يحبره : فلقد بعث الينا بعض رسائل قبل وفاته بيومين اثنين بقصد نشرها ، ومنها رسالة عنوانها « نظرة فى بلاد العرب » سننشرها غدا ان شاء الله .

توفي رحمة الله عليه عقب علة فى الفؤاد لازمته الزمن المديد ولم ينجح فيها طب الطبيب ، فمات في سن الخامسة والاربعين وله من الخلف الصالح ولدان اكبرهما فى السادسة من العمر ، وفيه من مخايل ابيه الذكاء النادر ، والفطنة الباهرة

---

## ﴿ منتخبات من قلمه ﴾

### ١ — قال يصف حاكي الصدى :—

مثال القوة الناطقة ، من غير ارادة سابقة ، يقتطف الالفاظ اقتطافا ، ويختطف الصوت اختطافا ، مطبعة الاصوات ومرآة الكلمات ، ينقل الكلام من ناحية الى ناحية ، نقل كلام عمر رضي الله عنه الى سارية ، أشد من الصدى فى فعله ، فى اعادة

الصوت على اصله ، كأنه الحرف عن يد الطابع والوتر عن يد الضارب والقصب عن فم القاصب ، يحفظ الكلام ولا يبيده ومتى استعدته منه يعيده من غير ان يبقى لفظا في صدره ، او يكتم شيئا من امره ، كانما حفظ الوديعة ، فى نفس طبيعة ، فلو تقدم له الوجود في مرتبة الزمن لما احتجنا فى الاخبار الى عنعنة ، ولا فى الدعاوى الى بينة ، بل كان يسمعنا كلام السيد المسيح فى المهد ، وصوت عازر من اللحد ، وكانت استودعته الفلاسفة حكمتهم ، وانشدوه كلمتهم ، فرأينا به غرائب اليونان وبدائع الرومان ، وربما سمعنا خطب سحبان ، وشعر سيدنا حسان ، بذلك اللسان وأصبح وجود الانسان غير محدود بزمن من الازمان ، لله دره من تلميذ يستوعب ما عند المعلم ويستخلصه فى لحظة ، معيدا لقوله ناقلا صوته ولفظه .

لقد وجدت مكان القول ذا سعة  فان وجدت لسانا قائلا فقل

نديم ليس فيه هفوة النديم ، وسمير لا ينسب اليه تقصير تسكته وتستعيده وتذمه وتستجيده ، وتنقصه وتستزيده ، وهو فى كل هذه الاحوال ، راض بما يقال ، لا يكل من تحديث

ولا يمل من حديث نمام كما ينم لك ينم عليك ، وينقل لغيرك كما ينقل اليك ، فهو المصور لكل فن، المتكلم بكل لغة المحدث عن كل انسان. المؤرخ لكل زمان. الشاعر الفاتر. المغنى العازف لا تعجزه العبارة. ولا يجهده الاداء. ولا يضره اختلاف شكل ولا تباين اصل . بل تعدت شدة حفظه البشرية من اللغات الى حفظ اصوات العجماوات. الى حركة اصطكاك الجمادات

فيا لله من ايهما نعجب . ولأيهما نطرب . امن حاكي الصدى وقد نقل صوتنا كما نطقنا. ام من شقيقه المصور الشمسى اذ ينقل صورتنا كما خلقنا فنرى من فى اقصى اقطار الارض وكلانا عن مكانه لم يتحول . ويسمعنا حديثه المعنعن ونسمعه حديثا المسلسل

٢ — وله من رسالة يصف نظاره ويشكر من اهداها:

ورد الكتاب المطرز بحلى الكرم . المحلى بجميل النعم . واستتمت الهدية . فسلمت يد اهدتها . وحفظت السجايا التي لمحاسن الاعمال هدتها ودامت رحاب لمثل هذه الحسنات فيها مجال. وللمحسنات بهاء وجمال. والآمال محط ورحال وللمقاصد

كعبة اقبال. وطابت نفس تعالي الله ان تماثلها نفس عصام[١] فانها نسخت آية الكرم والاقدام[٢] بآية الجود والاكرام. وفملت فى القلوب بالعطاء والنوال[٣] ما قصرت عنه الرماح الطوال . وتأملتها فأرتنى ما لا عين رات. رات واظهرت من محاسن المناظر ما أعمرت . وقربت كل منظوز بعيد وتلت : ( فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ) وصفا وقتى بصفائها . فلم أشته شيئاً الا جمعت بينه وبينى . وصح علينا قول القائل : ( رأيت بعينها ورأت بعينى ) ثم سرحت نظرى فى الاطلاق والرسوم . حتى نظرت نظرة في النجوم فلم تخف عنى شجرا ولا مدرا ولا نجما ولا قمرا

يزيدك وجهها حسناً  اذا . مازدته نظراً

بهاء يخيل لي انها صيغت من ضياء . فلا عيب فيها غير

---

(١) ابن شبر حاجب النعمان بن المنذر ومراده انه شرف بنفسه ولا يفتخر بآبائه

(٢) يريد به قول

نفس عصام سودت عصاما  وعلمته الكر والاقداما

(٣) العطاء

انى نظرت بها فى سماء فضلك الباهر . وافق شرفك الطاهر. فلم ينكشف لي بها لجودك آخر . لازال كرمك بعيدا حده على كل ناظر وباصر. وفضل مناهلك غاية تقصدها الاوائل والاواخر

٣ — وكتب يرثى صديقه عبده الحمولى وكان مشهورا بكرمه ووفائه ورقة شمائله. وعن ذلك يروى المتأدبون قصصاً لطيفة تدل على شهامة النفس التى كانت لذلك الرجل. قال الفقيد:

منى على عهد السرور سلام ... فقد انطوت بجماله الايام
وتقطعت اسباب كل لذاذة ... وانحل من عقد الصفاء نظام
نعى اتى شق المرائر بأسه ... وتحيرت فى هوله الاحلام
جنت المنية في الذى نختاره ... فالشجو باد والهموم لزام
اودى الزمان بمفرد قد كان في ... مهج الانام له هوى وهيام
واذا المنية اجهزت اجنادها ... مضت الضريبة والحتوف قيام
لهفى على نفس يقصر كفها ... عن كف كأس الموت وهو زؤام
واراك فى امل كرقدة حالم ... حسن اليقين تعودك الاوهام
لهفى عليك مؤملا قد خانه ... امل وغير حاله استسلام

وثويتَ في لحد وقبل حلوله ... لم تلق ليلا قد عراه قتام

ياطائما ناديت دعوة واله ... (ياليل) من كيد بها اضرام

لو احسن الليل المكافأة ازدهى ... بالبدر وهو بضوئه بسام

فتخال ان الليل قد سمع الندا ... وقد استطال على الصباح ظلام

فاذا شدا بالاوج خاق سامياً ... وغدا له فوق السماك مقام

نغماته مقرونة بصوابها ... سيان فيها مبدأ وختام

تحيي الموسيقي الفؤاد لانها ... لغة النفوس حروفها الانغام

وادق من وزن القريض وزانها ... ابدا فلا قطع ولا اصلام

اذ ربما قد كان ملك قيادها ... بيديه وهو بأمرها قوام

ان افهم الارواح سر خطابها ... تتنعم الارواح والافهام

يبكي الشجي ويقدم البطل الكمـ ... ـى على القتال وحبذا الاقدام

قد ضم شتي من أغانيك التي ... في اسرها الافكار والاوهام

ذياكم الحاكي الذي حفظ الصدى ... كالصك اذ حفظت به الاقلام

خليته جدثاً عليك وانت في ... جنبيه حي لم يرعك حمام

أودى فأودع كل شاد حسرة ... لما ترحل ظاعنا وأقاموا

كدرت في عيني السرور فصار لي ... في كل مشهد بهجة ايلام

فاعجب لحزن فى مقام مسرة ... واعجب لحرب والزمان سلام
ايقنت ان الدهر بعدك قد عفا ... والدار خلو والزمان عقام
ولقد أسنت مصر بعد شبابها ... ونتاجها وأصابها الاعقام
منى على تلك الليالي لوعة ... فساوهن على المحب حرام
من كان يدرك أنسها ونعيمها ... وبكى لها أسفاً فليس يلام
كانت مدينة «مصر» ربعاً آهلا ... بك حيث تمرح والزمان غلام
فى دولة خدم السعود ركابها ... وله عليها زمة وذمام
كانت شموساً للهناء منيرة ... فيها معالم للسرور تقام
افلت وكنت سنا شعاع سرورها ... دوماً وانىّ للشعاع دوام
وطوت نضارتك المنيه مثل ما ... يطوى بأيدى القاصرات لثام
عبثت بك الايام حتى انها ... لو أدركت لرثت لك الايام
ان التي فتكت بروحك قسوة ... قدما شكاها بلبل وحمام
لم يستمع فيك البكاء بمصرنا ... الا بكاك عراقها والشام
من للدفين بأن يفرج لحده ... ويرى الذى فعلت بنا الآلام
ويرى الديار ومن بها فى انسهم ... سهر النواظر والعقول نيام

٤ — وكتب : —

ان الحكيم الذي ينصب نفسه لتربية الامة يجب عليه ان يدخل بها في كثير من ابواب الرياضات ويريضها على صنوف من مكارم الاخلاق ليتحقق من استعدادها الفطرى ويظهر له الوجه الذى تصبو اليه، والموطن الذى تألفه، والمقصد الذى تتوجه اليه ، حتى اذا دعاها الولوج معه من ذلك الباب الذى رآه صالحالها لبته لانه اصبح هو وشوقها عليها

وقد رأينا ان الذين نصبوا أنفسهم لوعظ أمتنا هذه ونصيحتها قد قلبوها على اوجه كثيرة من التربية والتهذيب فأخذوها بالرفق والدعوة للخير، ثم واجهوها بالزجر والاعنات وضربوا لها الامثال، وحذروها عواقب ماهي فيه ودعوها الى محاذاة الامم ومجاراتها ، واهاجوا فيها نار الغيرة وقدحوا لها زند الشوق لكل فضيلة ، ثم رأينا ورأوا انهم على طول هذا الزمان لم يصلوا الى كل ما ارادوا بل قصرت بهم النتائج عن كثير من المباديء الشريفة التى نهجوها وارأدوها

تحقق لهم انهم كلما اجتهدوا فسدُّوا عليها باباً من ابواب

الشر فتح اهل الشر عليها أبوابا من المفاسد ولم يامن فيها العثور، ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق، الا قليلهم

ظهر لهم ان الامة لم يكن لها نقطة وسط ترتكز عليها، بل هى في مهب ريح الاغراض سائرة مع كل قائد، وعلى الخصوص لو عزز الداعى لها دعوته بالبهتان الذى اصبح منطلياً على اكثرها فما اسرع ان تلبيه اذا دعاها وتضافره اذا سألها

ثبت لهم ان فى الامة عددا عظيما نسوا ملتهم ودينهم ووطنهم، بل نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فلا بد لهم من مذكر يقرع اسماعهم بصوت آخر يكون له في القلوب رنة، وفي النفوس صدى يبعث فيها ميت الهمة

تبين لهم ان فى حواس الامة خدرا جعلها لا تتأثر لمصابها، كصاحب العاهة الذي تعيره الصبيان بها فيتألم منهم فى أول أمره حتى يضرب قريبهم، ويشتم بعيدهم، ريثما يعرف ان الناس تسامعت بعاهته واشتهر بها فيسكن ويضحك على نفسه كما تضحك الناس منه

ولا عجب فى هذا لان فقدان الفضائل وارتكاب اضدادها

وسلوك الطرق المبتدعة ، وانتقاض الاخلاق ،ونسيان العوائد الجميلة ، والافراط فى أسباب الحضارة من الرياش والترف ، والتناهي فى عدم القناعة ، بدل الخلق من أصله ، وحول العالم بأسره ، وكانما خلق جديد ، ونشأة مستأنفة وعالم محدث

نعم يجب على الناصح ان ينادي فى الامة بذلك الصوت من غير ان يدعوه حالها لليأس ، أو يسد عليه باب الامل ، أو يقطع عنه طريق الخير ، او يمانعه فى وصول النفع ، فان أبواب الصلاة لا تحصى ولا تستقصى يعرفها الناصح الامين ، والواعظ المشفق يرجوبها تحقيق الخير والنفع ان شاء الله

وان من ابواب التربية التى لم تقرع ، وطرقها الجسيمة التى لم تسلك ، وشرعها الغزيره التي لم تقصد ، دعوة الامة للنظر فى ماضى امرها واولية شأنها . لتعلم من هى . عساها تخجل من ان تكون خاتمة سوء لذلك المفتتح الشريف . عساها تأسف على حالها من كونها اصبحت بمنزلة السفيه ولي ملكا فلم يحسن سياسته ورزق سعة من المال فلم يدبر امر تنميته

هذا الباب من احسن الابواب التى تثقف افكار الامة

وأقرب ما تتربى على خيرة طباعها ، فان تذكارها بمجدها القديم وتمثيل عزها السالف لها ، وتشخيص مجدها الشامخ امام عيونها يدعوها بلا شك للتنافس بخلالها الحميدة السابقة

احسن رادع للانسان عن شهواته ان يلتفت وراءه فيرى في امته وملته العلماء والحكماء والعظماء والحكام والقواد عاشوا ولا شغل لهم الا مجدا اقاموه ، وعزا شادوه ، وشرفا حفظوه واكبر مسهل له لاحتماله الضيم والذل جهله بحالة نفسه ونسيانه مجد آبائه واجداده ، حتى تسترت عنه كرامة اخلاقهم وتحجب عنه جميل طباعهم ولم يذكره مذكر بسابق اعمالهم الشريفة انه لا يانف ابدًا من اتيان الدنيئة وعمل كل ما يخالف تلك الطباع الجميلة والاخلاق الطاهرة

لذلك ترى الدهاة من الفاتحين — خصوصا رجال الممالك الغربية الآن الذين لا يغفلون عن تجربة ولا يغضون عن فرصة — اذا فتحوا بلدة اسلامية او احتلوها تسلطوا على اهلها فأنسوهم دينهم وعوائدهم ولغتهم وتاريخ حياتهم ومجدهم واستبدلوهم بذلك شيئا آخر ، فتراهم اذا نسوا تاريخ حياتهم واشربوا في قلوبهم

تاريخ حياة غيرهم ، ذهب كل فريق منهم بما اشتهى وشبت النفوس على ما سبقت اليه وبدت على الامة أخلاق منكرة مبتكرة بعوائد غريبة لا تنسب بالمرة لسوابق عوائدها وتقربوا من تلك الامم الطارئين بكل طريقة، وابتعدوا عن ذلك الاصل الشريف الذى هم منه

ثم يتبع ذلك تقلص ظل الدولة الحاكمة وفل حدها ووهن سلطانها ، وتتداعى للتلاشى والاضمحلال وينتقص من عمرانها ويندرس من سبلها ومعالمها ، بمقدار انحراف رعيتها عن عوائدها الشريفة

ثم تتناهى الامة في الفجور وتتفانى فى البغى والضلال حتى تعود باللائمة على اصل دينها وعوائدها واخلاقها ، تقول وهى لا تستحى من الله ولا من الخلق ولا من نفسها انها ما أخذت الا من جهة تقصير دينها وتقاليده عن مقتضيات الحياة المدنية ومستلزماتها وافرادها يجهلون غاياته البعيدة في المآخذ والمتارك يودون من صميم افئدتهم ان لو استبدلوا بطباعهم وعوائدهم شيئا آخر ليخرجوا من ذلك الجنس كما هو واقع الآن من

بعض اهالى هذه البلاد المصرية ووقع من قبلها فى كثير من بلاد الاسلام كالاندلس وغيرها

عذر اولئك انهم يغدون ويروحون بين رجلين: اما عدو لهذه الملة يدعى عدم ملاءمة دينها للمدنية الجديدة (كبعض فلاسفة هذا الزمان) واما جاهل تاريخ حياتها فلا يعرف منها شيئا لا خيرا ولا ضرا (كاغلب شبان هذا العصر)

لذلك هم يفرون من النسبة لهذا الدين، ويتجنبون القرابة لأمته وملته لانهم اقل الناس دراية به ومعرفة بفضائله، لا يعلمون وهم اهله مكرمةً له يعدها المنتسب منهم اليه مفخرة اذا نازعه منازع في الانتساب اليه

ينبغى لهم ان يتألموا من ان يكونوا مسلمين لانهم لا يدركون للمسلمين فتحا أبلوا فيه بلاء حسنا، ولا يعرفون لهم حربا ولا ضربا، ولا يتحققون فى اى بقاع الارض نشأ المسلمون وفي اى جهة كانوا شرقا أم غربا، ولا يحصون لهم عددا ليعلموا انهم وهم على قلتهم فاجأوا حصون الممالك البعيدة ومعاقل العواصم النازخة فأنزلوا حماتها من عروشهم وبثوا فيها

معالم دينهم وصيروها حنيفية بعد ان كانت جاهلية

كيف لا يأنفون من المسلمين وهم يعتقدون انهم قوم نشأوا وسط البداوة لا يعرفون غير جوب القفار وقطع الاودية عاشوا فى جهالة وماتوا فى جهالة؟

لا يعقلون ان جميع مكارم الاخلاق انما هي منتزعة منهم مأخوذة عنهم ، وان ما يدعيه المدعي من الخلال الحميدة كالدعة والرحمة والشفقة والعدل والانصاف والاحسان انما هو مجاز بالنسبة له حقيقة بالنسبة اليهم ، وان هذه الامة جاهلية كانت و حنيفية لم تفارقها مكارم الاخلاق كحفظ الجار والجوار ومراعاة الشرف والذمة ، واحقاق الحق وقول الصدق ، ومحاسن الاعمال وجميل الخصال

من يعلمهم ان ملتهم هذه هى اول من تنافس اهلها في الخير وتحدوا غيرهم بخلال الكرم كالعفو عن الذلات والاحتمال من غير القادر ، والقري للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد . وبذل الاموال فى صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف

عند ما يحددون لهم من فعل أو ترك، وكرامة اهل الدين والحياء من الاكابر وتوقيرهم واجلالهم ، والانقياد الى الحق مع الداعى اليه وانصاف المستضعفين ومنع التبذل فى اموالهم، والتواضع للمساكين واستماع شكوى المستغيثين والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد

من لهم بان يتحققوا ان ملتهم هذه نشأت على هذه الفضائل التى هي أجمل وأكمل خلق السياسة حتى استحقوا بها أن يكونوا ساسة الامم التى تحت ايديهم ، ولم يوجد ذلك فيهم سدى ولا عبثا وان الله قد تأذن بوجوده فيهم لوجود علاماته فى قبيلهم

من يدلهم ان رجال الدين الاسلامى كانو خير مجتمع لتأسيس قواعد الحرية والاخاء والمساواة ، وان اهله هم الذين جابوا القفار وقطعوا الاودية وركبوا ثبج البحر لفتح باب العلم والانتفاع به وانه لم يزهر في دولة ازهاره في دولتهم ، ولم يعتز كعزته فى سلطانهم ، حتى تقوّت حجته وانتصر لواؤه واذعن الناس لقوته وأشرقت عقولهم بنور برهانه ؟

لابدلهم من مذكر بذلك كله ليعلم المتوسدون سرير الملك

والحاملون للواء الدولة والمباشرون للامر انهم لم يتطاولوا لهذه المراتب عن تطفل ولم يرثوها عن كلالة ، وليتحققوا انهم أهلها وان الفضائل التى أخذت في الذهاب عنهم والملك الذى صارت الاعداء ترتقب زواله من بين ايديهم انما سببه جهلهم بتاريخ حياة قادتهم وسادتهم ، وعدم علمهم بفضيلة اصولهم وعشيرتهم ورضوخهم لمن لا يناهضهم فى الشرف والنسب وتجاذبهم حبل التفخر والمجد مع من لا يدانيهم وحبهم تقليد سواهم واستبدالهم عوائد امهم وأجيالهم بعوائد غيرهم

# تمهيد

خذ بيدى ايها القاريء الكريم شرقيا كنت او غربيا ولنخطو خطوة واسعة في عالم الخيال نترك اثناءها مصر وطني وبلادى العزيزة واهبط بنا في صميم اوروبا . ثم اصعد معي حسبما شاءت ارادتك في ( بالون ) او طيارة هوائية

دع مطيتنا ترتفع ارتفاعا هائلا في الجو حتى نتمكن من استعراض القارة الاوربية كما تمثلها على الخرائط الجغرافية اذا تيسر لنا كل ذلك فالق بنظرك على ذلك العالم الشرير الذى يطلقون عليه اسم المدنية والحضارة وابحث في مخيلتك عن اسم ( بولاندا ) تلك المملكة التى كانت تتقلب فى نعيم الحرية والاستقلال فقلب لها الدهر ظهر المجن وتركها سليبة السعادة والهناء

اتعرف بماذا ابتليت ؟

انقض عليها الدب الروسى وفغر فاه وازدرد ثلثها بجشعه الاستعمارى فنكل بها وجرعها كؤوس الظلم والاستعباد الاشعبى

ووحشيته المتناهية

ومن ثم انحط عليها النسر الالمانى فانتشل بمخالبه الحادة نصف ما تركه سابقه

وبعد ذلك اتعرف ماذا جرى ؟ تجرأت النمسا فمدت يدها الأثيمة فسلبت ما بقى من ذلك الهيكل المقدس وراحت بولاندا التعسة ضحية اعداء الانسانية

محيت بولاندا من خريطة العالم السياسى. وعفت آثارها ولكنها لم تمح من قلوب ابنائها المخلصين العاملين لاسترداد وحدتها

ايه ايها الانسان ما اشد كفرك وجحدانك .ماذا ؟اهل ضاقت بك بلادك الرحبة . واراضيك الواسعة فصوبت سهام انتقامك الى اخيك الانسان لتسلبه ماله. وتسرقه حياته حتي زهد الحياة. ورغب فى الموت. واخذ يردد قول الحكيم « ما أجمل الحياة لولا لؤم الانسان »

فيأيها القارئ الكريم الصاعد معي ايري ما فعلته يد الانسان بأخيه الانسان. بل ليرى ما اجترمته يد الظلم والعدوان

لا. أستغفر الله بل ليرى فظائع الجشع الاستعماري ومنتهى سفالته

اذا ذكرت الممالك المسكينة التى قضت عليها احكام الدهر ومشيئة الزمن ان تموت وتعدم فاذكر بولاندا فى اولها .

اللهم رفقا انك تنزل الخلق من رحم امهاتهم احرارا فيأتى من فسد من عبيدك ويستبد بهم ويريهم الموت عيانا . ويكيل لهم بصاع الظلم حتي يرهق ارواحهم .

فأهدهم يارب العالمين . انهم كانوا من الضالين .

# الفصل الاول

## كوبريلى احمد باشا

كانت سنة ١٦٥٦ ميلاديه سنة ويل وثبور . بل سنة ظلام ومصائب على الدولة العثمانية . فان القائمين بالامر فيها كانوا من ذوى الاراء الضعيفة . والافكار الواهية بل على كل حال كانوا ضعاف الارادة

فى تلك السنة اظلم جو السياسة واكفهرت سماؤها فهاجم اسطول البندقية ( فنيستا ) جزيرتى لمنوس وتنيدوس واحتلتا احتلالا انتهي بالقبض على ازمه الامور فيها .

ومن ثم جر الطمع اولئك المشاغبين السفله فهاجموا الدردنيل واحتلوه رغما من مناعته فهددوا القسطنطيه . امل الاسلام وقوته .

ولكن ابى الله الا نصرة الاسلام على اعداءه فقيض له من ابنائه عائلة كوبريلى الالبانيه فنجتها من خطر محدق بها كادت تركبا تضيع بسببه

وكان رأس تلك العائلة كوبريلى محمد باشا وهو رجل ولا كالرجال له حنكة الشيوخ وهمة الشبان . الف الدهر وعاركه

كان في الثمانين من عمره حين قبض على أزمة الرئاسة فابدى من سياسة المحافظة على المملكة خير سياسة . فكان خير حاكم اخرج للناس فى ذلك العهد . كان عادلا محبا لخير الامة العثمانية . ناشر العدل والمساواة في انحاء البلاد متخذا الحرية قاعدة له يسير على منهج الخلفاء الراشدين متبعا قاعدة الشرع الشريف يسير على طريقها القويم

بدأ هذا الشهم حياته السياسية بتغير سياسة الدولة فبدلا من اتباع سياسة سليمان القانوني والرجوع اليها فى صداقة فرنسا وغيرها ابتدأ بتغير دفتها وسار ميمما سياسة الوحدة اى اتباع تركيا طريقا تكون فيه بعيدة عن التأثر بسياسة اى دولة من دول اوروبا

اما سياسته الداخلية فكانت مقصورة على تنظيم المديريات والمقاطعات وأقامة حكام يراعون العدل في نظامهم. والتؤدة فى سياستهم والحنكة فى أمورهم

وقد باشر طرد الاسطول الفنيسى عن لمنوس وتنيدوس فانجلوا فى اقرب وقت تاركين الاوطان لاهلها. والبلاد لسكانها

وبهمته المعهودة ضرب بيد من حديد على ثورة كان للانكشارية يد فيها فاسكتهم وأمن اضطراباتهم!

وعلى كل حال فانه احيى تركيا حياه طيبة والبسها ثوبا قشيبا خاطته يد الحنكة السياسية . والتدبير والعدل والروية ولكن هو الدهر لا يؤتمن وفي قوسه منزع للسهام

فان المنية فاجأت هذا البطل سنة ١٦٦١

تولى بعده الصدارة كوبريلى احمد باشا ابنه الاكبر فكان خير شبل لخير اسد

هو ذلك الرجل الذى توجنا باسمه الجليل ( الفصل الاول ) وهو ايضا قد اتبع سياسة الوحدة فكان لا يحيد عنها قيد شبر.

ابتدأ في جهاده لرفعة المملكة العثمانية بتجريد جيش يبلغ عدده نيف ومائتي الف مقاتل وهاجم النمسا والمجر .

وما بلغ هذا الخبر مسامع فرنسا حليفة الاتراك بالامس حتى ارسل لويس الرابع عشر ثلاثين الف مقاتل ليساعدوا النمسا بالنسبة لما أبداه كوبريلى محمد باشا من قطع العلائق معه واتباع ابنه سياسته .

كان قائد النمساويين فى ذلك الوقت منتكوكولي الايطالى فانتصر على الاتراك بعد واقعة شابت لهولها ناصيته . وتلك هي واقعة سان جوتار على نهر الراب.

ولكن رغما عن هذا الانتصار فأن الفوز الحقيق كان فى جانب الاتراك .

فقد خاف الامبراطور ليوبولد امبراطور النمسا وقتئذ سطوة لويس وتداخله فعقد صلحا ابرمه مع احمدباشا فى مدينة فاسفار سنة ١٦٦٤

فنال احمد فى هذا الصلح حصنا في المجر. واحتلال ترانسلفانيا . ادار بعد ذلك هذا البطل وجهه فوجد ان الاتراك اراقوا دماءهم الزكية فى جزيرة كريت وان فنسيا قد احتلتها . فجرد جيشا وحاصرها سنة ١٦٦٩ وهاجم القائد الفنيسى مروسينى واضطره للتسليم وعمل صلح

انتهي من تلك الحرب . فذهب الى القسطنطنية ليستريح من وعثائها فلم يستقر حتى هبت في وسط اوروبا ريح تحمل صراخ قوازق الاكرين وتبلغ الامهم الى جميع ممالك اوروبا .

وقد استغاث اولئك الاقوام بأحمد باشا فاستعد ليحارب بولاندا وينصف اقوامها .

ونحن انما جئنا بتاريخ ذلك البطل هنا ليكون منسجما مع بقية الحديث

ندع الان تلك الوقائع والمعاهدات. والحروب والاغارات

ونرجع الى القسطنطنية محط رحال آل عثمان بهجة الاسلام وقرة عينه

سرابها القارىء في ناحية بيوكدرة تلك الناحية المشهورة بجمال موقعها . وطيب هوائها . وحسن اخلاق سكانها. جل ينظرك في انحائها تجد في الشرق على شاطئ البحر قصرا شامخ البنيان عالى الاركان مرمرى العمد . فخم الاثاث. حافل بآله. عامر بصحبه . ادخل اليه تجده ملان بالخدم والحشم. ولاعجب فهذا هو قصر الصدر الاعظم ثانى رجل فى الاسلام

وعنا الان من وصف داخل القصر وسر بنا الي اوسع قاعات الدور الاسفل تجد غرفة مفروشة على النمط الغربى المحض

جلس في صدرها رجل وخط الشيب ناصيته . بشوش الوجه ربع القامة كبير الشاربين. يبعث الذكاء ومن عينيه. تدل ملامحة على التؤدة والروية وهو رجل الدولة ومصباحها . وقائدها وهاديها هو . احمد باشا كوبريلى

وامام ذلك الوزير جلس رجل يدل لباسه على ان قوزاقى من سكان الاكرين ابتدأ الحديث بينهما فكان كما ياتي

قال القوزاقي — انا لم الجأ لجناب الوزير الكبير الا ونحن على علم تام بانا سنلاقي عضدا قويا . وكنفا نحتمي به فننجوا من مصائب كادت تقضي على حياتنا لسوء معاملات النبلاء انا واستعبادهم ايانا كأنا خلقنا لنكون لهم خدم وعبيد .

— وهل هناك ايها الرجل فرق كبير بين الشعب وما يسمونهم النبلاء

— نعم يامولاى فاني اصرح بذلك والاسف يقطع نياط ذلك القلب المسكين الذى انما يبكي على دولته التى سوف يمحيها حكم الدهر بل حكم حكامها السفلة الذين ينقادون الى ما يفعلون بطمعهم الاشعبي . واستبدادهم المميت

اصرح يامولاي ان نبلاء بولاندا يرون في انفسهم حكام المملكة واصحابها يستعبدون الشعب ويجرونه بيد من حديد سوف تقذفنا واياهم في هاوية التعاسة والشقاء . انهم يامولاى يقودون الشعب للعمل بلا اجر . يكممون من يقول الحق يقتلون من يعارضهم . يسوقوننا للموت كالاغنام للذبح .

— ولكن أهل فقدت العدالة . وساد الظلم . وعدمتم

محاكم تنجيكم مما انتم فيه اليس فى الامة من رجل بمعنى الكلمة يقودها حيث ترقى وتعتز .

— ان لبولاندا يا سيدى الوزير مجلسا يطلق عليه اسم «الديت» وهناك تنفذ القوانين ويصدق عليها. هناك يحكمون على الشعب حكمهم الذى لا يقبل النقض والابرام . ولكن الغريب المزرى بشرف الامة البولانديه هو انه اذا تغيب نبيل وقت التصديق على قانون بل كان حاضرا وعارض. فان ذلك القانون يعد لاغيا . فهم والحالة هذه يصدقون على قوانين في صالحهم اكثر مما هى فى صالحنا. فهم فى نعمة ورفاهية . ونحن في نقمة وبلاء

— يالله فظاعة أهل الانسان يفعل ذلك باخيه فى الانسانية . وشريكه فى المرافق الحيويه . ولكن على كل حال انكم استعنتم بتركيا وهى ستعينكم وهى فى غنى ايضا عن اية مساعدة حربية كانت او مالية

ولكن الانسان بطبيعته ميال الى صالح نفسه فجلالة السلطان اذا رأى مثلا ان فتح بولاندا لا يكلفه الا القليل من

المال والرجال ما دمتم انتم مساعد به ليخلصكم من رق واستعباد فهو لا يرفض ذلك ابدا ونحن ان هاجمنا فأنما نهاجم لصالحكم فلا يصح ان نتصب ونتعب وانتم على مهاد من الراحة نائمين فافصح لى عن مواضع الضعف فيكم عن حصونكم واحوالها عن عدد جنودكم . عن قوادكم المشاهير .حتى ندبر للامر عدته. ونحارب على بينة .

وهنالو دخل عليهما ثالث وحقق النظر الى وجهه القوزاقي لعجب من منظره فانه كان احمر الوجه بدرجة غير محدودة . وذلك انما لانه كان يخون وطنه. ويلقى باسراره الى غريب لا يحق له ان يطلع عليها . ولكنه في هذه الحالة يبوح مضطرا بحكم المعاملة التى يلقاها في بلاده.

وبعد دقائق معدودات رفع القوزاقي رأسه وقد القى الى الوزير الكبير كل ما اراده ثم تابع حديثه وقال

واني احذر سيدى الوزير من نائب حر اسمه سوبيسكي. شديد الغيرة على مصالح بلاده يتنبأ له الكثيرون بانه سوف يكون عضدا قويا لبولاندا وينجيها من عدو سوف يقتضها بين

اشداقه خضمة الأبل نبتة الربيع

— انا سنكون على حذر اكثر من اللازم وبعد شهر او أقل سترى ملائكة الرحمة متقدمة جيش امير المؤمنين الظافر . وسترون كيف ينتصر آل عثمان للعدل والحق والانسانية .

انتهى الحديث بينهما على هذه الصفة فقام مندوب القوزاق متمهلا الى ان خرج . وهنا خلا الجو لذلك الرجل الكبير الذى تعلق عليه الدولة آمالها فجلس يمعن الفكر فيما هو قادم عليه وجعل يحدث نفسه قائلا .

— أى احمد الم يزل علم السعد خفاقا . وما برحت من الفائزين . وانت يا أبى نم في قبرك مستريحا . وانت ايتها الروح استقري فى قبرك مطمئنة . واعلمي انى متبع وصيتك لا أحيد عنها أبد . تلك الوصية التى تقول لى فيها . « اياك والركون الي اعداء الدين . وطع فى الدنيا اثنين ربك وملكك . واسع لخير امتك ودولتك » فانا باذن الله منجز وعدى ومبلغ بدولتى مقرها الذى ينبغى ان تكون فيه .

وبولا ندا لا بد من افتتاحها . وانى أرى الطريق تنفتح

أمامى اذ لا أسهل من افتتاح مملكة تنافر عنصراها وانطبق عليها قول السياسى « فرق تسد » . مملكة ضاعت اواصر المحبة والاتحاد بين افرادها . مملكة نصرت الظلم وطمست العدل مملكة قبض على ازمة امورها امير ضعيف ونبلاء اقوياء يديرونه كما يشاءون

وهنا دخل عليه خادم غرفته الخصوصى سعيد منبئا ان هناك حاجبا من بلدز يستدعيه لمقابلة خليفة المسلمين فقام توا ملبيا الأمر فلندعه سائرا حيث المهابة والجلال . والخلافة الاسلامية باسمي معانيها . ولنسر الى بولاندا لنرى حال مملكة ضاعت واندحت .

# الفصل الثانى

## الديت

الديت اسم اطلق على ذلك المجلس النيابي الذى أخذه البولانديين بعد شق الانفس . بل بعد ما جاهدوا جهاد

الاتراك سنة ١٩٠٨ . ولا غرو فانهم ما كانوا يحاربون عبد الحميد واحد بل كانوا يحاربون ما يفوق الف نبيل يماثل كل واحد منهم طاغية كهذا الطاغية المستبد .

اخذوا ذلك المجلس الذى ليس له من المجالس النيابية الا اسمها . وانما اعطاه سالبهم اياه ليسد افواها ملأ صراخها آذان العالم المتحضر . وازعج انينها قلوب المتمدنين من ممالك اوروبا بل ايقظ من كان نائما لم يسمع ان بولاندا لا تزال تحت اثقال من الظلم راسخة .

كان اعضاء ذلك المجلس كلهم من النبلاء لا يصدقون على قانون يكون مخالفا لمصلحتهم ولو قامت ثورة كثورة الفرنسيس تنتهى بقتل زعماء الحكام كما انتهت بقتل لويس وماري .

فهم انما كانوا يلبسون لكل حادثة لباسها ويمثلون على مرسح الاطماع رواية هم الفائزون فيها

كان اولئك الذين ليس لهم من النبل الا اسمه لا يصدقون الا على قوانين توافق مشاربهم وتلائم مصالحهم . فقضوا

على الشعب المسكين واضاعوه .

فاصبح عدوا لهم. وهكذا غدا من السهل اقتناص بولاندا وضربها ضربة قاضية في حريتها واستقلالها ما دام التنافر اخذا محلا فى قلوبهم متمكنا فى افئدتهم فالنبلاء يستعبدون الشعب استعباد العبيد ويجرونه بل يسوقونه كما تساق الشاة للذبح بل كما كان فرعون يسوق المصريين للعمل فى بناء الاهرام بدون اجر فكافؤوه بعدم دفنه فيها

وهكذا يتملك المستبد الرقاب ويتحكم بالعباد الى ان تحين لهم فرصة فيهجمون عليه هجوم الذئاب الجائعة على مستقليها فيزلزلون عرشه ويجعلونه مزعزع القوائم .

ندع الان النصح لذلك المستبد السافل الذى لا يجد عبرة في هدم عرش شارل الاول وسفك دمه . وبتر رأسه بسيف الجلاد

بل لا يجد عبرة بانتصار الشعب على لويس السادس عشر وقتله اياه مع عقيلته مارى انطوانيت التى شربت الكاس نفسها بل لا ينتصح بالقريب الذى ملأ آذان العالم المتمدين

من قلب عرش المستبد الى مجلس شورى وانزال طاغية القسطنطية من عرشه ونفيه الى سالونيك .

ندع كل ذلك ونسير بالقارئ خطوة كبيرة نترك بها دار السعادة ونحط برحالنا فى وارسو عاصمة بولاندا وحاضرتها

هناك بعد ان نستقبل المدينة من الجهة الشرقية شارع يقال له شارع جونسكى اذا توسطته وجدت به بنيا نا فخما يكاد يسد منا فذ القبة الزرقاء وقد اطلق عليه ذلك الاسم الذى صدرنا به الفصل الثانى .

## الديت

فى الخامس من شهر (ا ب) سنة ١٦٧٢ كان السائر في هذا الطريق يلفت انظاره كثرة الازدحام حول باب الديت وذلك لان اليوم موعد انعقاد جلسة للمباحثة في تقرير ضريبة جديدة . والمناقشة فيما يتعلق بقانون جديد سينشئونه ضد قوازق الاكرين .

أما الضريبة فسنعلم قريبا من أى نوع هى

أما القانون فكان يقضى على كل قوزاق وجد في منزله اجتماع واشتبه فيه ان يجازى بدفع غرامة لا تقل عن خمسماية روبل وان توانى عن الدفع فأمامه خمسة اشهر يقضيها بعيدا عن اعين اخوانه مسجونا .

وهذا هو ما كان يخرجه اولئك المستبدون من القوانين القتالة للحرية الشخصية والعمومية .

خذ بيدى أيها القارىء الكريم وادخل بنا الى ذلك المجلس لترى فظائع تعصب النفس للنفس . بل لترى الانانية وكيف يكون مبلغها . بل لتنظر مبلغ احتقار الانسان لأخيه الانسان

هناك بين أوسع قاعات المجلس قاعة تسمى قاعة الجلسات فما وافت الساعة التاسعة صباحا حتى توافد نبلاء القوم ليقرروا القوانين ويصدقوا على المواد. ويضربوا الضرائب على شعب آن من الظلم وبلغت شكايته عنان السماء

انتصفت الساعة التاسعة فنادى مناد بالانتظام فسكن الجميع وانتظروا اقوال رئيس المجلس الكونت سمولنسكي حيال

هذه القوانين والضرائب

قرع جرس فقام الرئيس خطيبا فقال

ايها الاخوان . هنا اجتمعنا اليوم لنقرر ما يدفع عنا صرخات ذلك الشعب الثقيل الذى يريد الا ان يكون صاحب الامر والنهى لا يلوى على اى سيد كان .

ونحن انما نسينا ذلك المثل العربى القائل « لاتطعم العبد الكراع فيطمع في نبل الذراع »

فنحن بيدنا زعزعنا مراكزنا . واثرنا عليها ذلك الحيوان الممقوت فقد اعطيناه ماراد فظن انا طوع امره فطلب الزيادة وجب اذا ايها الاخوان ايقافه عند حده خيفة ان يمتد لهيبه المحرق فيزعزع الملكية والنبلاء ويهدم ما شيده اجدادنا ( تصفيق حاد من الشمال )

فكرت فى ذلك انا ورفاقى اولى الامر واصحاب السياده فى وطننا العزيز فوجدنا ان خير قانون هو معاقبة اي فوزاقي اشتبه فيه محرضا لاجتماع ان يسجن خمسة شهور وان اراد ان يفدى نفسه فيدفع خمسمائة روبل لحكومة جلالة الملك

فهل انتم موافقون

نعم موافقون نعم موافقون ( حزب الشمال )

كلا ان ذلك قائل مجحف ( بعض حزب اليمين )

وهنا قام احد اعضاء حزب اليمين جون سوبيسكى فقال

ايها الرئيس . ايها الاخوان . ان ذلك القانون الذى اخرجه جناب الرئيس وزملائه ووافقتم انتم عليه لانه موافق لمصلحتكم قاتل لغيركم . قاتل للشعب . قاتل لذلك الملك الذى ينقلب بالارهاق شيطانا .

فهل فكرتم كلكم في ان مراكزكم التى انتم فيها لم تحفظ وان اموالكم لم تبق . وان حياتكم لم تسلم . الا لان الشعب هادئ لايحرك ساكنا الا وشرف بولاندا ان نفخة واحدة في تلك النار المدفونة لكافية ان تكشف عنها الرماد فنرى رجلا ككرومبل يمثل على مرسح البلاد البولاندية رواية شارل الثانى

( ضجيج تافف )

اسكت اسكت لانريد ان تتكلم ( حزب الشمال )

(سوبيسكي فى وسط الصخب) دعونى اتكلم ايها الاخوان

فتروا صحة كلامي حتى اذا مت يوما ما وذكرتم اسمي ترحمتم على فرد يسوءه انحلال بولاندا .

فيا ايها الرئيس ويا أيها الاخوان افيقوا واعلموا ان تلك القوانين تثير الشعب وانكم انما تحفرون قبوركم بايديكم . انتم تثيرون النار بنفخ الرماد . رفقا بانفسكم ورفقا بشعب تقودونه . بل بشعب انابكم ووكلكم اموره

( حزب الشمال وبعض حزب اليمين ) اسكت يانصير الشعب ها ها ها لانريد ان تتكلم كفى هذيانا

(الرئيس) سنأخذ اغلبية الاصوات بطريقة سرية فليكتب كل عضو رأيه في ورقة وليلقها فى هذا الصندوق. واشار الى صندوق وضعه على طاولة امام المصوتين .

وهنا تمتم سوبيسكى قائلا الان تمت الغلبة للظالمة وصار النصر فى جانب العسف وضاع العدل بين اولئك الذين ليس لهم من النبل الا اسمه فياويح امة انتم نوابها

وبعد ردهة من الزمان سكتت الجلبة على صوت الرئيس اذ قال ايها الاخوان سيسرى القانون باغلبية الاصوات

والان فان امامنا ضريبة نريد ان نقررها لان المالية فى حاجة الي المال لتحسين الحالة الادارية في المملكة .

وما انتهي الرئيس من كلامه حتي قام جون سوبيسكى وقال انك ياجناب الرئيس وياحضرات النبلاء لو كنتم تخالطون الشعب لادركتم حالته المالية فلا بد انكم كنتم بدلا من ضرب الضرائب تخففونها عنه لانها اصبحت حملا ثقيلا على كاهله ينئ تحتها فرفقا بالامة باقادتها . ورفقا بالشعب يانواب . ورفقا بالمملكة يارؤسائها

الرئيس : ذلك امر جلالة الملك ومع كل فسنري باغلبية الاصوات فيا حضرات النواب هل توافقون على ضرب ضريبة جديدة

( من اليمين ومن الشمال ) نعم نعم ذلك من حق جلالة الملك وحقنا . وبعد قليل وافقت اغلبية المجلس على ضرب ضريبة جديدة

وما هى تلك الضريبة ؟

انها كانت على قطع الاخشاب من الغابات . اذ قرر ان

كل طن من الخشب يؤخذ عليه ثلث ثمنه رسما

وهكذا كان ذلك المجلس يضيق على انفاس الشعب ويذيقه كؤوسا يضيق لها صدر الحليم

ارفض الاجتماع اخيراً . فكان اول المجتمعين خروجاً جون سوبيسكى الذى دافع بكل قواه عن الشعب . وبذل كل مجهوده للذود عن حوضه .

فما ظهر امام الجمع المحتشد امام باب المجلس حتى هتفوا هتافا بلغ عنان السماء كان يتخلله قولهم :

« ليحي النائب الحر » « ليحي سوبيسكى » « ليسقط الظلم » « ليسقط الاستبداد » وهكذا كان الشعب يحي قائده والمدافع عنه ويظهر له مايمكن ان يعبر به عن سروره واحتفائه به.

وبالجملة فأن جون سوبيسكي لم يمكنه ان ينسرق من هؤلاء الذين يودون الموت فداءه الا بكل عناء . فذهب توا الى قصره واستراح . وبعد ان تناول غذاءه ركب عربته وسار متنزها فما توسطت عربته طريق ميخائيل حتى تقدم الى العربة رجل لابس لباس الخدم البولانديين وبيده رسالة . وما

لبث سوبيسكى ان رآه حتى اوقف العربة وقال

— خيرا يا سرجيوس

— ان شاء الله ياسيدى ولكن سيدتى ارسلتني لأقابلك وأعطيك هذه الرسالة

— فأخذ سوبيسكي الرسالة وأمر سائقه بالمسير وفضها فوجد بها سطرا واحدا هو « قابلنى الليلة بغار السعادة » والامضاء صوفيا

فقال ياترى أى امر جد واي حادث حدث وانا تاركها بالامس قريرة العين ولكن على كل حال سأراها اليوم

وقف السائق اخيرا امام قصر سيده فنزل سوبيسكي من المركبة وصعد القصر .

فلنتركه الآن ولنسر بالقارئ حيث يلتقى العاشقين

# الفصل الثالث

## البولاندية الحسناء

صوفيا جاركوف غادة بولانديه تسكن وارسو عاصمة بولاندا وحاضرتها. وهى معروفة فيها بحبها للخير والاحسان ومد يد المعونة لفقراء وارسو وعائلاتها وطالما رأوها سائرة متبرقعة بقناع كثيف حاملة بيدها مؤونة او مالا تريد ان تحسن به مختبرقة ازقة ضيقة واماكن قذرة لا يسكنها الا الشعب الفقير الذى صار فى النزع الاخير من حياته لما اصابه من تضييق فى الحرية وسلب فى الاموال . وضياع في القوى .

تسير تلك الغادة الحسناء حتى تقف ببيت خيم عليه الفقر فصارت أيام ساكنيه أشد سوادا من حظ المنكود فتنقلب تعاستهم سرورا وأحزنهم حبورا ولا غرو فقد كانت كملائكة الرحمة لا تنزل فى مكان الا وتترك به أثرا من آثار النعمة . تواسى المرضى فتسقيهم . وتساعد الفقراء فتنجيهم وتطعم الاطفال فيفترون عن ثغر باسم شاكرين لها تلك اليد .

ومن ثم تخرج محفوفة بدعوات خارجة من قلوب مخلصة تود لها الخير من صميمها . تخرج ووراءها السنة منطلقة بشكرها والثناء عليها .

تسير في الطرقات فيشيرون اليها قائلين «هذه ملاك وارسو صوفيا جاركوف ذاهبة الى منزلها بعد ان ساعدت عائلات فقيرات خيم البؤس على منازلهن فما خرجت منها حتى صيرتها جنة »

«ان الطيور على اشكالها تقع» ذلك مثل عربي طالما ساعد الدهر على اثباته ولا غرو فان صوفيا جاركوف ملاك وارسو كما يلقبونها كانت حبيبة ذلك النائب الحر والبولاندى الطاهر المدافع عن الحق . الذائد عن المروءة « جون سوبيسكي »

رأها ذات يوم جالسة في حديقتها تخيط ثيابا لاشك في انها كانت لعائلة فقيرة . وكان قلب ذلك البطل الذى صار فيما بعد اشجع قائد فى زمانه خلو من الهوى فما رآها وصادفت عيناه عيناها حتى امتزجت روحاهما ومالا الى بعض كل الميل ولم يمض يوم او يومان حتى تقابلا وتلك سنة الغرام الطاهر

والحب الشريف

نظرة فابتسامة فسلام  فكلام فموعد فلقاء ؛

تلاقيا بعد ذلك مرارا وانما كانا يتلاقيا فى غار بعيد عن المدينة يطلق عليه اسم « غار السعادة »

كان ذلك لان ابى صوفيا الكونت سمولنسكى رئيس « الديت » يكره ان تتلاقى ابنته مع رجل كسوبسبكي يساعد الشعب على النبلاء مع أنك لو سألت ذلك الرجل بشرفه ونبله عن رأيه فى سوبيسكى لصاغ لك المدح عقودا واعجب به أيما اعجاب ولكنه لا يمكنه ان يصرح بذلك خيفة ان ينتزعوه من مركزه عنوة واقتدارا ويبدلوه بغيره .

وان مركز رئيس الديت لمركز تتوق اليه نبلاء بولاندا فبكلمة شك تبدر من فم الكونت سمولنسكى تودى به وتنزله من حالق مجده .

وكان لصوفيا خادم امين تربى فى بيت ابيها من صغره فكان هو الوحيد المطلع على غرامها الطاهر . بل كان الرسول بين الروحين المقل للرسائل بينهما بامانة قلما يشاركه فيها آخر

من بني ادم

تقابلا ذات يوم فى غار السعادة ولم يلبث سوبيسكي قليلا حتى استأذن حبيبته بالانصراف وذلك لانه قد وردله خطاب من الديت يفيده بان موعد الانعقاد باكروانه لابد من حضوره لحصول امور ذات اهمية وتقرير قرارات كبيرة .

وانما كان ذلك اليوم هو الخامس من شهر ( آب ) الذى دافع فيه جون سوبيسكي عن الشعب دفاع المستميت . بل هو اليوم الذى قابله فيه خادمها سرجيوس بخطابها الذي تدعوه فيه وذلك لان ميخائيل ملك بولاندا استدعي الكونت سمولنسكى ابيها بعد اجتماع المجلس وتقريره تلك القوانين

فلما عاد استفسرته ابنته عما دار بينه وبين الملك اجابها قائلا اطمئني يا ابنتى فانه لم يدعنى الا ليخبرنى ان الاتراك برئاسة احمد باشا كوبريلى صدرهم الاعظم قد احتلوا كامنياك احتلالا نهائيا وانهم يتقدمون بانتظام نحو العاصمة . وقد خيرنى في انتخاب قائدا لهم فاشرت عليه بانتخاب جون سوبيسكى .

— ماذا يا أبى اهل ضاع حب الوطن من افئدتكم فانك

روى لى خبر احتلال الاتراك لبادوليا وكامنياك بكل سهولة وبساطة . ثم تفاجئنى بتعيين سوبيسكي . أهل تريدون بهذا التعيين ان تبعدوا عن المجلس خيرة نوابه وارقى منتخبيه .

— الا فاسكتي فانه تقرر نهائيا ولا مرد لامر جلالة الملك ونبلائه

خرجت صوفيا من غرفة ابيها وقد غص ريقها وصار تعيين ذلك الحبيب قائدا لجيوش بولاندا قذي فى عينيها وشجي في حلقها . ولا ريب فأنهما ما يكادا يرتشفا كؤوس الحب الطاهر والغرام العذرى حتى وافى نبأ الفراق وحتم عليهما ان لا يتلاقيا بعد . وربما وافى حبيبها اجله المحتوم فى تلك الحرب التى ولا ريب سيقاتل فيها مقاتلة الشجاع المستميت .

فكتبت تلك الرسالة ونادت سرجيوس وقالت له .

سرجيوس عليك بمقابلة جون واعطائه هذه الرسالة يدا بيد ولا بد من ايجاده وان كان في المجلس فانتظره . واياك ان تأتينى الا بخبر يسرنى وما هو الا ايجاده واعطائه الرسالة

سترين كل مايسرك ياسيدتى

غاب سرجيوس ورجع فكان اول من قابله صوفيا اذ كانت جالسة فى حديقتها فسألته اقابلته

نعم ياسيدتى وقد اخذ الرسالة واستفسر من صحتك

اذا فاستعد ياسرجيوس الليلة في منتصف الليل لاننا سنذهب الى غار السعادة فقد بلغ الامر من الاهمية اكبرها .

— سمعاً وطاعة ياسيدتى

---

انتصف الليل ونامت وارسو وساد عليها السكون حتى الطبيعة فانها شاركتها فى ذلك السكون فلم تكن تسمع غير حفيف الاشجار وخرير نهر الفستيولا فلم يكن هناك من انتبهت عيونهم ولم يشاركوا ذلك المجموع الاخر في نومه الا ثلاثة هم جون سوبيسكى وحبيبته صوفيا وسرجيوس ملاكهما الحارس .

فلو سار القارىء فى ذلك الوقت قاصدا ذلك الغار ملتقى العاشقين لوجد سرجيوس واقفا على بابه حارساً وهما في الداخل يتشاكيان الغرام ويتبادلان كؤوس المحبة .

فلنتخذ من الظلام سترا لنكون على مقربة منهما فنسمع
ايات الحب يفوه بها ذلك الفم اللطيف الطاهر .

ابتدأ سوبيسكي الحديث فقال

اى صوفيا خيرا ان شاء الله فانى تركتك أمس قريرة العين جذلة الفؤاد فما الذى دعاك الى أرسال هذا الخطاب .

ماهذا الكلام ايها الحبيب الا تريد أن نكون على مقربة من بعض . الا فاعلم انا عن قريب سنفترق فان الاتراك هاجموا بولاندا وقد عينوك قائدا لجيوشنا

فتجهم وجه جون وصاح — ماذا ايتها الحبيبة ان ذلك لخبر لم اسمع به حتي الساعة الا منك . واذا كان خبر كهذا له من الاهميه ما له ولا اسمع به حتى الساعة يذا الاتراك يتقدمون ممتلكين بلادنا ونحن نسكت حتي الان . الا انه خير لبولاندا ان تخل من ان تكون فى مركز كهذا . اما انا فاني اتقدم لا لأكون قائدا بل لأتطوع لجندى بسيط أحارب اعداء وطنى وما أعداءه فى الحقيقة ألا مليكه ونبلاؤه . والان كيف يتسنى لهم جمع الجيش وصد هجمات أولئك الاتراك

الذين طالما سمعنا عن خبر انتصاراتهم العديدة .

فيارب كن مساعدى وقو ساعدى حتي ارد غارات قوم سوف يبتلعون وطنى العزيز فيذهب ضحية أولئك السفلة القابضين على ازمة الامر فيه . اما انت ايتها الحبيبة فقراق ان شاء الله يعقبه تلاق بانتصار وخير . ودعينى ايتها الحبيبة التي ان مت فليس امامى الا شبحان يهيجان قلبي وضميرى اولهما بولاندا والثانية انت ياصوفيا .

فصلى وادعي لى في صلواتك بالنصر عسانى انتصر فاكون ممن جاهدوا فى سبيل اوطانهم .

وانت ايتها الحبيبة الا ترين ذلك الضعيف ميخائيل وكيف لم يصل الينا خبر الحرب ونحن اعضاء مجلس الشورى لبولاندا بل لولاك لم يصل الى الا ربما حينما يكون الاتراك على ابواب وارسو والان ايتها الحبيبة ودعينى . قبلينى . دعينى اتملى من حسنك الفتان فأخذ لى منه زادا اتزود به فى غمار تلك الحرب الشعواء .

— اواه ايها الحبيب اتفارقنى ولم يكبر للان غلامنا ويشب

ماهذا ياربا اهل قدر على التعاسة والشقاء . ايها الحبيب استحلفك بغرامنا الطاهر ان تبقى بجانبي ولا تقدم على حرب سوف تنتهي باتخاذنا .

رفقا ياصوفيا فنحن لسنا في موقف غرام . بل في موقف وطن واقدام . فشخصك لا يبرح مخيلتي . ولكن وطني . وطني الذي ان مات مُتنا وان عاش عشنا لابد من انقاذه والا ذقنا من بدالاتراك كأس الموت وصرنا سبة الدهر . وعار التاريخ . والان وداعا ايتها الحبيبة وسأترك بجانبك سرجيوس فهو ملاكك الحارس .

وهنا كانت الساعة المؤلمة ساعة الوداع فغص ريقهما وبللت دموعهما خديهما وودا لو ان الساعة تقوم فيموتان معا ويحشران معا .

ولكن سوبيسكي قاوم نفسه وهرب مودعا اياها .

فلنتركهما الان ولندع مواقف الغرام وراءنا ولنستقبل ساحة الحرب ومواقف الطعان لنرى حب الوطن وكيف يكون مبلغه

# الفصل الرابع

## كامنياك

نسير الان زحفا الي بدوليا قاصدين كامنياك حصنها الحصين بل تلك القلعة التي حصنها ايدي الطبيعة . ويحميها يد العناية الالهية فكانت كالاسد الرابض المنيع الجانب .

فلامرتفعات وانزلو التي تحصن بها ولنجتون فتهر نا اليون واطفاء بيده نجم سعوده وقهره يد القادر المتمكن . وانزل ذلك الجبار الذى اطلق عليه لقب الرجل الذى لا يغلب من سماء مجده الى اسفل سافلين

بل ولا مضيق ملونا الذى يحصن به اليونان في حربهم الاخيره وقهرهم فيه ادهم باشا بهمته المعروفة وحيلته الهائلة

ولا غرو فقد كان كامنياك حصنا حصينا قائما في وسط سهل كبير لا يمكن لاحد ان يحمي نفسه باى شيء تحت نيران مدافعه وبنادقه . فالذي يتعرض للهجوم عليه كتعرض لاسد بلا سلاح اما ارتفاعه فقد كان هائلا . ولكن حكومة بولاندا

اهمله اهمالا فظيعا ونبذه نبذ النواة فلم تعد دفاعه كما كان المطلوب.

فصار من السهل افتتاحه واحتلاله على قوم كالاتراك يقول عنهم نابليون « لو كان لى جيش من الاتراك لفتحت العالم بأسره »

فقد كان وساز احمد كوبريلى باشا بجيش يزيد عن ربع مليون جندى مدرب يحمل عدة كاملة وكلهم ذو عزيمة حادة قوية طالما حيتهم الى الحربيين من كل مملكة

فقد كان الجندى العثماني يقاتل بشجاعة واطمئنان قتال الحافظ للمثل القائل «من مات فى سبيل وطنه مات شهيدا» فهو شجاع يعلم ان الموت موت واحد . ولكن عدوه جبان يموت مائة مرة قبل ان يدخل في غمار الحرب . وزيادة على ذلك فهو صبور لدرجة لا تطاق يكتفي بالقليل من الطعام .

تقدم كوبريلى احمد باشا بهذا الجم الغفير وكلهم قلب واحد يودون النصر وكلهم مشتاقون لذلك .

ففى التاسع من شهر نوفمبر سنة ١٦٧٢ ظهرت طلائع

جيش احمد باشا فرأنبا الحامية التى في الحصن ولم تكن تزيد عن خمسة آلاف جندى . ليس عندهم من المؤونة الا ما يكفيهم أيام قلائل

رأي أولئك الجنود ذلك الجيش الذي سوف يهاجمهم عن قريب فعولوا على الدفاع الي آخر نقطة من حياتهم والموت شرفاء يذكرهم التاريخ بأنهم لم يسلموا وفيهم نقطة دم . بل يذكرهم بأنهم ماتوا دفاعا عن أوطانهم

فعسكرت جنود احمد في السهل على مقربة من الحصن وعولوا على المهاجمة بعد قليل

وقد باشروا الهجوم على الحصن فى صباح العاشر من شهر نوفمبر فكانت قذائف الاعداء تنهال عليهم كالوابل الهتون فيثب عزرائيل قابضا روح هذا مستمهلا ذاك والحى منهم يجعل الميت ترسا يحمي عنه رصاص الحامية وقذائفها فلم ينتصف النهار حتى كان الاتراك على قاب قوسين او ادنى من الحصن

ومن ثم صرخ أولئك الشجعان صياحهم المعروف وقت

النصر « الله أكبر » « الله أكبر » فاهتز الوادى والحصن معا لهذا الصياح المخيف من فم ربع مليون جندى كل له صوت يدك معقلا

فكان صياحهم كالقذائف أصابت قلوب البولانديين فهلموا وصاروا كالجزوان لحقتهما السنابير فسكنت أصوات الحامية . ولا غرو فانهم دافعوا عن الحصن الى ان خلصت المؤونة

كان لكل جندى عثمانى فأس فى حزامه فأخرجها وتحطمت الابواب ودخل الاتراك منتصرين ثملين بخمرة الفوز عادتهم فى كل موقعه

أما البولانديين فانهم عمدوا الي السيوف فأخرجوها من اغمادها واستعدوا للموت

وقلدهم الاتراك فكان مذبحة انتهت بقتل جميع البولانديين حامية الحصن عن آخرهم حتى قائدهم فانه أسلم الروح من يد ضابط انكشارى ضربه ضربة فصل بها رأسه عن جسده

وهكذا بر البولانديين بوعدهم وقاوموا الي النهاية

فذهبوا ضحية حبهم لوطنهم يحفظ لهم التاريخ ذكرا حسنا ماكر الجديدان

دخل احمد كوبريلى الحصن وامر كشافين الجيش بالذهاب ليروا جيوش البولانديين وهل تقدمت ام لا

هبت ريح نقلت انباء الحرب الى جميع انحاء بولاندا فعلم القاصى والدانى الصغير والكبير بما آلت اليه حال مملكته وكيف هزم الاتراك جيوشها بل كيف يتهاون ملك بولاندا ونبلائها في الدفاع عن وطنهم ضد عدو مخيف كالاتراك .

فلم تصل أخبار الانتصار الى قوزاق الأكرين حتى هبوا ثائرين سائلين الاصلاح . طالبين العدل والانصاف. ولا غرو فقد جاءت الفرصة وحان وقتها . والزمن فرص . ان تركت عادت غصص .

ولغاية ذلك الوقت لم يهتم نبلاء بولاندا بل ولا مليكها الذى كان يجب عليه ان يخاف على عرشه من الاضمحلال اي اهتمام .

بل ولم يعقدوا مجلسا ليبحثوا عن احسن الطرق لرد ذلك

العدو الذى يتقدم باطمئنان .

ولكنهم بهذيان المحموم امروا ان يولى على الجيش جون سوبيسكى وان يجمع الجيش بسرعة زائدة .

وعلى هـذا الدرب سار اولى الامر في بولاندا فولوا جون سوبيسكى قيادة الجيش لانه رجل يحبه الشعب ويود لو يفديه بارواحه .

فلم يكد يصل نبأ هذا التعيين الى المدن والقرى المجاورة حتى توافدت الجنود المنظمة · و الاهالى المتطوعة . زرافات ووحدانا ليكونوا تحت أمرة قائد يحبونه ويجلونه .

فلم تمض أربعة أيام حتى استعد الجيش للمسير ليحارب عدو هائل وأسد رابض . سار الجيش وصراخه يصم الاذان قائلا .

لتحي بولاندا . ليحي الوطن . ليسقط الاتراك . ليعش جون سوبيسكى

وهكذا نسى الشعب فى ذلك الوقت اضغانه السابقة لاولئك الذين جعلوا همهم قتله . والتضيق على حريته .

تناسوا الاضغان وانما لان الوطن فى ضيق يجب عليهم ان يساعدوه بكل قواهم وان يبذلوا جهدهم لينقذوه من مركزه الحرج . و بعد ذلك يولون وجوههم شطر أولى الامر فيحاسبونهم على غلطاتهم الماضية . على استبدادهم و تعسفهم . على قوانينهم القتاله .

وعلى هذا النمط سار ذلك الجيش تحت امر قائد مدرب خبير وكلهم قلب واحد . يطيعون أمره أطاعة الرضيع لوالدته .

فلنسر معه خطوة خطوة حتى نلتقى بالاتراك فى جوقزين فنرى كيف يكون الغلط اصل التقهقر . بل كيف ينتصر الجيش مادام متحدا قويا يقوده رجل محنك وطنى كسوبيسكى

# الفصل الخامس

## جوقزين ولبرج

جوقزين ولبرج هما اسما تلك الواقعتان اللتان حارب فيهما سوبيسكى محاربة الضعيف اليائس ولكن بعزيمة لا تفل

وقوة لاتمل فقد استعمل قواه واجهد فكرته في ايجاد طريقة لهزيمة عدوه .

وقد كلل عمله بالنجاح وظفر أخيرا على الاتراك وهزمهم شر هزيمة فى الواقعة الاولي « جوقزين » ومن ثم سار متبعا أياهم ألى ان لحقهم فى «لبرج» وبقوة المنتصر الحق بهم خسارة عظيمة وهزمهم .

تحققت نبوءته يوم قال لصوفيا «تلاق يعقبه انتصار وفرح» فانقلب يأسه شجاعة . وود لو قابل الاتراك ليقهرهم ثالثة. ولكن هى الدنيا «يوم لك ويوم عليك»

والان فلنصف قدر الامكان جوقزين ومن ثم لبرج ليعلم كل كيف يريق الناس دماءهم دفاعا عن وطنهم بل كيف يستميتون فى الدفاع عن حقوقه .

قلنا ان الاتراك دخلوا كامنياك بانتصار كبير . و ارسل احمد كوبريلي باشا كشافة الجيش ليروا كيف يتقدم الجيش البولاندي الذى خرج من وارسوا قاصدا كامنياك ليخلصه من اعداء الوطن .

فلم يزل متقدما سائرا ببطء حتى وصل جوقزين و هى قرية فى منتصف المسافة بين كامنياك ووارسو فعسكروا خارجها بامر من سوبيسكي .

منتظرين جديد من قائدهم الباسل .

وقد عسكر سوبيسكى خارج هذه القرية وانما كان غرضه الوحيد في هـذا العمل هو ان يسحب الاتراك الى ناحية ليقاتلهم فى واقعة منظمة يكونوا فيها أمامه .

وذلك لانه فكر وهو في الطريق الي كامنياك فوجد ان الحصن منيع والاتراك قد زودوه بما معهم من مدافع وذخيرة فصار أمنع . وعلى هـذا فانه يلقي بنفسه فى آتون من نار اذا تقدم يريد الدخول الى الحصن واخذه .

بل هو يلقي بنفسه فى فم الليث بدون ان يتخذ له درعا أو شيئا يدفع عنه الضرر الذى سوف يلحق به .

وقد ساعده الحظ على اتمام مراده . فان احمد سار قاصدا أياه وذلك لان الكشافة بعد ان تنسموا الاخبار وعلموا علم اليقين ان البولانديين معسكرين خارج قرية جوقزين ساروا

قاصدين كامنياك . فاخبروا احمد بحقيقة الامر .

واخيرا بامل الانتصار كما انتصر قبلا عول على الزحف ليلاقى عدوه

فامر اركان حربه باتخاذ معدات السير ولزوم السكون والؤدة .

وفى اليوم الثاني نادى مناد بالرحيل فتحرك ذلك الجيش الجم الكثير تاركا القلعة لحاميةغير قليلة وترك معها مؤونة كافية وسار الكل قاصدين جوتزين وكل يمنى نفسه بانتصار كبير على سوبيسكي وجنوده .

وهكذا يتمنى المنتصر دائما نفسه بالانتصار حتى اذا غلب وكان من ذوي النفوس الضعيفة اليائسة رجع القهقرى . أما اذا كان من ذوى النفوس الكبيرة والهمم العالية . علل نفسه بالانتصار منشدا قول الشاعر

على المرء ان يسعى لما فيه نفسه وليس عليه ان تتم المقاصد

ومن هذا الصنف الاخير كان كوبريلى احمد باشا فقد كان رجلا قوي الهمة على الامال . لا تعجزة أى عقبة . ولا

يقف فى طريقه أى مانع . يسير الى مرمى فكره وليه. ولم يغب عن العالم مافعله هذا الرجل العظيم بل لا يجهل المؤرخون تلك المواقع التي كتبها بحد حسامه . وان هزم اولا فانه انتصر اخيرا والعبرة بالآخر لا بالاول .

سار احمد يقوده جيشه العرمرم وكله آمال بالانتصار. فوصل الى ضواحى جوقزين فى سهل هناك وعسكر .

وصل خبر الاتراك الى البولانديين فاحدث هرجا بين الجنود الذين لم يلبثوا ان سمعوا نفير يأمرهم بالاجتماع فاصطفوا وخرج سوبيسكي من خيمته ممتطيا مركبه الادهم الجميل الى ان توسط الجيش فوقف. ووجد في هذه الساعة ان خير مشجع هو ان يلقى على جنوده خطابة صغيرة تبث فيهم روح الاقدام ولو أنهم كانوا فى غنى عن أى مشجع .

ساد السكون فلم تكن تسمع وقتئذ الا ضربات القلوب التى لم تلبث أن هدأت حينما أدار سوبيسكى رأسه ونظر نظرة المرتاح الى جنوده وابتسم وقال. مقلدا هنيبال فى خطابه الى جنوده

ايها الجنود الشجعان .

«ادير رأسى وأوجه نظرى فلا أرى أي ثغورا باسمه . ووجوها تضره. دلالة على انكم جنود بمعنى الكلمة تريدون النصر وسيكون ان شاء الله حليفكم .

انكم اليوم ستقاتلون عدوا مخيفا قاهرا طالما سمعتم عن انتصاراته العديدة . ولكن ذلك لا يمنعكم عن الانتصار انتصارا باهرا يذكره التاريخ وكتبه . ويفتخر به ابناؤنا من بعد .

كونوا متحدين قلبا وقالبا تغلبون اعداءكم وتسعدون وطنكم الذى هو فى حاجة كبيرة الى الانتصار اذ انه يتوقف عليه سعادتكم أو ذلكم .

قاتلوا جنبا الى جنب ولا تجبنوا يتم لكم النصر واعلموا ان العالم كله سينظر الى هذه الموقعة اذ تهزمون قوم يقول عنهم بقية اخوانكم الاوربيون انهم لا يغلبون .

والآن هيا الى الحرب . هيا الي الاتراك .»

فاجابه اصوات الجند التى تحركت وقتئذ للامام قائلة .

« الى الاتراك » . « الى الانتصار »

فكان يجيبهم كصدى على صياحهم قول الاتراك « الله

اكبر » « الله اكبر » الذين تقدموا باطمئنان نحو عددهم . تلاقى الجيشان في سهل يطلق عليه الان سهل تيروتوفتش فاطلقت القذائف ولمعت السيوف واحتلت السهل جنود عزرائيل واكفهرت السماء . واغبر وجه الجو .

وفى احرج اوقات المعركة بينما كانت ميمنة العثمانيين زاحفة بانتصار أمر احمد كوبريلى باشا احد اركان حربه بالذهاب الى بعض فرق الميمنة يامرها بالانضمام الى الميسرة لانها كانت على وشك الانهزام لضعفها .

فبدلا من ان يطيع الامر اختلط عليه الامر فذهب الى الميسرة فامر بعض فرقها بالذهاب الى الميمنة .

وبهذه الحالة امكن البولانديين من التغلب على ميسرة الاتراك ومن ثم تقدموا الى القلب فهزموه ايضا .

وفى هذا الوقت تم النصر للبولانديين فتعقبوا الاتراك الذين التجئوا الى قرية لمبرج فدخلوها وعسكر الباقي هناك . وتوافدت الجنود العثمانية الى لمبرج يتبعها قائدها احمد كوبريلى باشا الذي عول على القتال الى النهايه

اما سوبيسكي وجنوده فانتظروا الى ان هجم الليل بجيوشه وساروا قاصدين لمبرج بآمال المنتصر ليجهزوا على العثمانيين الباقين

فوصل الى المعسكر منتصف الليل فدوت أبواق الحراس وقام الاتراك الى سلاحهم ولكن التعب الذى لاقوه . والنصب الذى قاسوه اثر عليهم فلم يلبثوا ان انهزموا بانتظام تحت استار الظلام وكلهم يردد قائلا « الى سهل كلاستكي »

وهو امر تلقوه من قائدهم الاكبر . فساروا جميعا الى ذلك السهل الذى يشرف عليه « كامينك »

فلم ينبلج الصباح حتى كنت ترى معسكر الاتراك وخيمه في ذلك السهل مبعثرة هنا وهناك والجميع تحت سلطان النوم فلم يؤذن مؤذن بالصلاة حتى كنت تراهم بملابسهم الحمراء كزهور ارجوانية نابتة في سهل من الحنطة

واحمد باشا كوبريلي في خيمته يفكر في طريقة يهزم بها جون سوبيسكى فأرسل العيون والكشافين من القوزاق

فلم يلبثوا ان اتوه بالخبر اليقين وهو ان سوبيسكى معسكرا فى زراونوا فعول على مهاجمته في مقره

فجمع أركان حربه وقسم جيشه قسمين امر الاول بالمسير تحت امرة احد كبار قواده سيف الدين باشا ولا يعلم احد وجهته الا قائده

اما هو فانه بعد يومين شد رحاله الى زراونوا وسار ميمما اياها

# الفصل السادس

## زراونو ومعاهدتها

يقول المؤرخون ان « احمد باشا كوبريلى » حاصر « جون سوبيسكي » فى زراونو محاصرة عنيفة ولكن كان اسم سوبيسكى كافيا لان يدع احمد باشا وجيشه يسلم بعمل معاهدة مع البولانيين اهم فقراتها ان يأخذ الاتراك بادوليا. والبولانديين الاكرين

ولكن جميع من لهم ذرة من العقل والفكر يحكمون بان هذه الحقيقة وهم كاذب لا نصيب له من الصحة.

اذ كيف يعقل ان يحصر « احمد باشا كوبريلى »

« سوبيسكى » بفئة اكبر واكثر من فئته ثم يسلم على زعم ان اسم « سوبيسكى » كان كافيا لان يدع الاتراك يسلموا رباه انهم كلما جاؤوا الى حقيقة في جانب الاسلام قلبوها كذبا فهم يحاربوننا في بلادنا . فى اموالنا . فى نسلنا . في علومنا . بل وفى تاريخنا

ان جيش احمد باشا لو كان سنانيرا لكانت كافية لان تسحق قوة سوبيسكى وفئته التى لاحول لها ولا قوة بل محصورة تحت رحمة الله ويد احمد باشا فالحقيقة المرة التى تصيب قلوب أولئك المؤرخين هو ان احمد باشا كوبريلى اما انه سلم بعمل معاهدة حسما للنزاع او انه وجد انه خير له ان يباشر هذه المعاهدة من ان يطيل أمد الحرب

فقلبوا الاية وقالوا ان اسم سوبيسكى كان له رعب كاف لان يجعل الاتراك يبرمون معاهدة

نرجع الآن الي سياق الحديث اذ تركنا احمد باشا كوبريلى سائرا بنصف جيشه بعد ان امر النصف الثانى بالمسير قبل يومين تحت قيادة سيف الدين باشا

وزراونو قرية محاطة بتلال عالية احتلها جماعات البولانديين وجعلوها كدرع يحمى المدينة غوائل عدوهم المبين

فى السادس من شهر دسمبر سنة ١٦٧٥ بانت طلائع الاتراك من الجهة الشرقية للمدينة فاصلتها الحامية نارا من مدافعها جعلتها تقهقر للوراء ومن ثم عسكرت بعيدا عن مرمى قذائف العدو

نسير الآن حيث سيف الدين باشا قائد النصف الاخر بأمر رتبه كوبريلى باشا . فتذهب هذا البطل وقوله زراونو فسار قاصدا اياها ولكن من طريق يقتضى زمنا كثيرا . وحدد له كوبريلى باشا ان يهجم على المدينة من الجنوب نصف الليل تماما في ليلة ٧ دسمبر سنة ١٦٧٥ . حيث يهجم هو من جهة الشمال وعلى هذا يمكنهما القضاء على سوبيسكى واماله

هجم الليل والسكون ضارب أطنابه مخيم علي زراونوا وضواحيها . والقمر يشرق انا ويحتجب آخر . والظلام سادل سترا على الجيش فلم تكن تسمع الا خطوات الحراس المنتظمة ولكن فى الساعة الحادية عشر اى قبل منتصف الليل بساعة

كان المار بقرب معسكر الاتراك يرى حركة غير عادية والكل في يقظة كأنهم على قرب ان يلتحموا مع عدوهم في موقعه .

وقبيل نصف الليل بقليل تحرك الكل بسكون حتى اذا كانوا على قاب قوسين او ادني من المعامل البولاندية احتجب القمر وراء السحاب فزحفوا علي بطونهم . ومن ثم اصدر كوبريلى باشا امره فهللت تلك الجموع وكبرت وهجمت هجمة الاسد على معتقليها .

التحم الجيشان . ولمعت السيوف . وكنت تسمع صفير الرصاص يمر كالوابل الهتون . فتقدم الشجاع . وفر الجبان

كانت هجمة الاتراك شديدة جدا بدرجة ان البولاندين تقهقروا قليلا بانتظام . ومن ثم اعادوا الهجوم فكانوا على قاب قوسين او ادني من الفوز لولم يحدث ما حدث

واليك ايها القارئ ما حصل فان سيف الدين باشا هجم بجيشه على البولانديين من الجنوب بينما كان الاتراك مبتدئين بالهجوم من الشمال .

ففازوا فوزا مبينا وقهر البولانديين ودخل الاتراك

فائزين واتجهت منهم قوة كبيرة الى الشمال لينجدوا كوبريلى باشا وجنوده . فجاؤوا في الوقت الملائم

جاؤوا وقت ان بدأ البولانديين بتجديد الهجوم فخوصروا بين قوتين قويتين فسلم من سلم وقتل من حارب

فلنقف هناك بعد الساعة الرابعة حيث ابتدأ النهار ان ينبلج والصبح ان يتنفس. لنري الاوصال الممزقة . والجسوم المفرقة .

لنقف هناك حيث ضاق رحب الفضاء . بأكام الاشلاء لنقف ولا تنقل قدما . فان على الارض اجساما لم ينضب ماؤها وقلوبا لم تجف دماؤها . ووجوها لم يزايلها حياؤها .

لنقف ونتذكر قول أبي العلاء

سر ان استطعت في الهواء رويدا

لا اختيالا على رفات العباد

اللهم ان القلم ليقف بين الانامل مشدود الوثاق. والقلب لينعصر من الجزع والاشفاق. ليسطر نكبات الحرب ومصائبها ودواهيها وكربها. بل وما تجلبه على الأهلين من موت وخراب

ديار . وتبديد عائلات وضياع آثار . بل وما تجنيه العالم من رزاياها السافلة . فالمقهور يقاسي الام الانكسار . والمنتصر يتلذذ بنعمة الانتصار . ولكن كلاهما أضاع نفوسا زكية . وبدد اموالا . وأسال دماء بريئة .

فالحرب داهية شعواء . فهي كغراب البين ما وجدت في بلد الا دمرته وما الانتصار الا غطاء خفيف اذا ما انكشفت ظهرت آثار الجروح التي لم تندمل . وبقايا المصائب التي لم تذهب آثارها .

دخل احمد كوبريلي باشا زراونو ظافرا منتصرا بعد ان سلمت له الحامية باجمعها .

ولكن ذلك المنتصر الظافر امر عند تسليم المدينة كف القتال وعامل جيوش بولاندا الباقية وقائدها جون سوبيسكي معاملة الخدن للخدن فلم يتعسف ويستبد بهم بل فاق في تلك الحالة في الرحمة اولئك المتمدنين ابناء اوروبا في القرن العشرين الذين يدعون انهم ملائكة الانسانية .

واننا لا نضرب مثلا بالبعيد الماضي . بل بالقريب الحاضر

بايطاليا التي فتكت بالطرابلسيين شر فتك. ومثلت بأسرى الحرب اشنع تمثيل وفتكت بالايامى والاطفال والارامل . فكانت طرابلس مدينة النجيع حقا فالدماء تتدفع . ورؤوس الابرياء تقطع وقلب المدنية عليهم يتوجع .

اجترمت ايطاليا ذلك الجرم فى رابعة النهار على رؤوس الاشهاد واوروبا واقفة ناظرة بعين وضع عليها حجاب ولسان اخرس لا ينطق. خرقت المعاهدات والمحالفات ولم تحرك اوروبا ساكنا كان لم يحدث هناك حادث

نرجع الى زراونو لنرى الرحمة وكيف تكون . والرأفة وكيف يصير مبلغها . وذلك في وسط القرن السابع عشر اى حينما كانت اوروبا لاتزال ومحكمة التفتيش راسخة الاقدام بها. والاضطهاد الديني منتشر بها. والخزعبلات قائمة على ركن متين

ذهب احمد باشا الى سوبيسكى فى قصره . وقد كان يبكي اسفا على انتصار اعقبه خذلان . ولكنه عزي نفسه بجوقزين ولمبرج . تقابلا فأنست سوبيسكى رؤية احمد باشا كل ما كان يقاسيه من آلام . وما يعانيه من متاعب

وقد كانت نتيجة تلك المقابلة عقد معاهدة اطلق عليها اسم زراونو وكانت هي التي يقول عنها المتخرصون الساسة الاستعماريون . والمؤرخون الذين يراعون فى تاريخهم حب النفس والانانية انها نتجت عن خوف الاتراك من سوبيسكي كانت نتيجة المعاهدة وأهم فقراتها . ان تأخذ تركيا بادوليا وان تأخذ بولاندا الأكرين على شرط ان تدفع لهم كل سنة جزية مخصوصة

انتهت الحرب على خير فسار احمد كوبريلى باشا ووجهته القسطنطينية فكان هذا آخر عهدنا به . اما جون سوبيسكى فأنه توجه وقبلنه وارسو محط رحاله واماله .

سار الى حيث يدعوه غرامه الطاهر . وحبه الشريف سار الى حيث يلاقى صوفيا تلك التى كان خيالها لا يبرح ذهنه طول هذه الحرب الشعواء

فسار حيث يلاقي غرامه ومجده فأنه بلا شك كان منتظرا من الامة والحكومة ان يكافئاه على ما قام به لهما من خدمات جليلة لولاه لكان قضى الامر وصارت بولاندا

مستعمرة تركية .

فنسر معه حتي نرى كيف تكافئ الامم الحية قادتها . بل كيف تفرح الشعوب بمنقذيها . وكيف ينال العاملون من خير رغما عن سعى اعدائهم وكيدهم. والله يجازى كل على قدر عمله انه خير المحسنين .

# الفصل السابع

## « فى وارسو »

سار سوبيسكى خارجا من وارسو فى أول الحرب قاصدا ميدانها وبلاده تنظر اليه بعينين تائهتين كفتاة عذراء هجم عليها عدو ليغتصبها أو كاد فبرز اليه من حيث لا يعلم قرن يناجزه فتناطحا وتبارزا

هلعت الفتاة فاحتبست انفاسها . ووقفت دقات قلبها. وسرى الدم باردا في عروقها . منتظرة نتيجة الكفاح لترى هل ينصر الله منقذها . أم يرديه فتموت معه .

هكذا كان شأن وارسو مع الاتراك وسوبيسكي فانها كانت ساكنة هادئة والاهلين لا ينبئون ببنت شفه كأنما على رؤسهم الطير . منتظرين وصول الاتراك بخوف وقلق .

حتى اذا ما بلغهم خبر جوقزين وانتصار سوبيسكي فيها هبوا كأنهم كانوا في قيودوا طلقوا . فكانت اصواتهم بالغة عنان السماء . ولا غرو فأنهم انتصروا على الاتراك خير أمة حربية أخرجت للناس .

ومن ثم وصلهم خبر لمبرج فزادهم سرورا على سرور وصار ليل بولاندا نهار . و الاحتفالات آخذة مجراها . والشعب قد نسى أساءات نبلائه فاحتفل معهم بالانتصار .

وكيف لاينسى في ذلك الوقت وهو زمن الفرح . زمن سرور الامة

ولكن في وسط تلك الاحتفالات اعتلت صحة ميخائيل مليك بولاندا وأميرها . وكانت صحته كل يوم تنتقل من سيء الى اسوأ وكان الامل في شفائه قليل جدا .

فكان البلاط مقر النبلاء كل يوم . والاطباء من كل

جانب كل يسعى جهده ليخفف آلامه

والمقربون منه يقولون «أني ساعة السرور والنصر تعتل صحة المليك» ولكن الشعب كان لا يهمه مات الملك او عاش فانه لم ينسى انه الرأس المدبرة وان النبلاء انما كانوا اليد المحركة لاساءته فلم يعبؤوا بمرضه او موته .

بخلاف ذلك اذا كان الملك مراعيا خير شعبه ودولته فانه اذا اعتل لبست الامة عليه ثياب الحداد وتكدرت من طفلها الى شيخها ولاغرو فان الرأس الصالحة ان مرضت مرض باقي الجسم .

اصيب ميخائيل بفالج عجز نطسة الاطباء عن مداواته فكان هناك سؤال يدور في خلد جميع النبلاء . « وهو » من سيخلفه على عرش بولاندا ولا وريث له. ان الديت اذا اجتمع فلا بد انهم ينتخبون سوبيسكي

وهكذا أتى اليوم السادس من شهر فبراير سنة ١٦٧٦ ومات ميخائيل فاحتفلت بجنازته حيث دفن باحتفال لائق لمليك مثله .

ولكن تلك الحفلات التى قامت كان الشعب لا يشاركه فيها . فكانت حفلات خالية من الروح الوطنية . والاسف العام

وفى عصر ذلك اليوم عينه وصل وارسو جندى بولاندا يحمل رسالة الى الكونت سمولنسكي رئيس الديت من جون سوبيسكي . فاجتمع النبلاء في الحال ولما انتظم عقد المجلس قام الكونت رئيس المجلس خطيبا فقال.

ايها الاخوان .

انكم بلا ريب تعلمون خبر انتصار جنودنا الظافرة على الاتراك فى واقعتى جوقزين ولمبرج . وانه لانتصار سيذكره التاريخ .ويتحدثون به الحربيون في كل آن .

وقدحوصر قائدنا الهمام جون سوبيسكي في قرية زراونو وهاجمهم الاتراك .ولكنهم اوقعوا على عمل معاهدة هى في جانبنا اكثر مما هى في جانبهم.

تلك المعاهدة تقضى ان يأخذ الاتراك بادوليا . ونأخذ نحن الاكرين مع دفع جزية معلومة

وهى نتيجة لو تعلمون باهرة كان الساعي فى تحقيقها جون

سوبيسكي الذى كد واجتهد لينتصر ذلك الانتصار الباهر .

والان فقد مات الملك بلا وريث فوجب على المجلس ان ينتخب رجلا يقوم مكانه . فلنؤجل اجتماعنا الى الغد لان المسألة فى غاية من الاهمية وان غدا لناظره قريب

انتشر خبر رجوع سوبيسكي الى وارسو فعم الفرح ارجاءها ورقصت القلوب طربا . وكان اشدها فرحا قلب صوفيا تلك الحبيبة التي كانت تقضي وقتها مصلية له داعية بالنصر والفوز حتي اذا وصلها خبر رجوعه كاد يثبت قلبها من الفرح . وقبلت سرجيوس خادمها الامين بين عينيه جزاء لتلك البشرى التى لا يعادلها شيء .

لو عمر احد البولانديين الامناء الى ابريل سنة ١٩٠٨ وشاهد دخول شوكت باشا ظافرا . بل ولو رأى بعينيه احتفالات الاتراك ومعالمهم لقال « حقا ان التاريخ يعيد نفسه »

ولا ريب فقد كانت وارسو بعملها هذا تكافيء من انقذها من الموت وهيأها لان تكون مملكة قائمة مستقلة .

وصل الجيش وعلى رأسه جون سوبيسكي قبيل الغروب

فكان وارسوشعلة من نار بل كما قال احدهم لم يعرف لهما فى ذلك اليوم ليل.

فقد كان في كل منزل احتفال وفي كل طريق اعلام وسرادق . كل ذلك ليظهر البولانديين بمظهر العارفين للجميل المقدرين الرجال حق قدرهم .

وفي منتصف الليل بينا كان الاحتفال بالغ أشده . والقوم لاهين غير محتفلين الا بماهو امامهم . انسل جون سوبيسكى من بين اخوانه النبلاء الى الخارج حيث سار ميمما غار السعادة ليلقى من يحب بعد ان غاب عنها زمنا مديدا

فكان قلبه يكاد يثب من بين جنبيه فى الطريق حتي اذا وصل الى الغار وجد صوفيا واقفة فاتحة له زراعيها

فكانت مقابلة تجلى فيها الحب الطاهر باسمي معانيه وشوهد فيها مغرمين فرقتهما ايدي الدهر ومن ثم سمحت لهما بالتلاق . جلسا وكل ينظر الى وجه الاخر ليشبع منه النظر الى ان قالت صوفيا

ايه ايها الحبيب ثلاث فرص سمح بها الدهر فتلاقينا بعد

ان كنت سائرا في مواطن الخطر . ورجعت بحمد الله سالما. ان فرح وارسوا واهلها لا يعادل شيئا من فرحي انا التى كنت اهتز كالسنبلة حركتها الريح فرحا بانتصاراتك على امة كالاتراك

وساعة وصلنا خبر حصار زراونو كاد قلبي تقف دقاته ودمي يجف مع عروقي وتجلت امامى شبحا للموت يريد ان يخطف روحى . وما احلاه فان الموت يحلو اذا عيش السرور مضى . وكيف تحلو الحياة وانت بعيد عنى

وكانت صوفيا تتكلم وسوبسكي سكران بخمرة الانتصار والحب. الى ان انتبه وقد قبلته صوفيا فقال

الان ايتها الحبيبة زالت الاشجان . وولت الاحزان . وابتسم ثغر الدهر بعد عبوسه. ونجا الوطن المفدي . وأديت واجبي. فلنبادل بعضنا غراما شريفا طاهرا . وحبا عذريا .

فآه ايتها المحبوبة كم كنت افكر في تلاقينا بعد تلك الحرب الشعواء وهل نلتقي

ولكن هي العناية الالهية تساعد المخلص وتقوى مركزه

وانا قسما بحبنا الطاهر . والسماء اللازوردية . والشمس والقمر لايتأثر مثلي على هذا الوطن الاسيف الذى سوف يلاقى حتفه ان لم يلاقى قائدا رشيدا . ولا يغرك ظواهر النبل التى على وجوههم فان بين تلك الجوانب قلوبا كقلوب الذئاب واشر وتحت تلك الثياب شراهة النمر وفتكه وبين تلك الرؤوس عقول اشد حلكا من السواد .

فانا اسأل الله ان يبقي هـذا الوطن وان يقيض له من ابنائه من يقوده فى دجى المشاكل . وغوامض المسائل بيدرشيدة تعرف الصالح من الطالح . وذلك بعد موتي وأما غرامى أيتها الحبيبـة ؟ غرامي الذى اقدسه واعبده . انت تعرفين ذلك وبرهانى عيناى وقلبي . حركاتى واخلاصى . وانت على علم من ذلك كله .

والان فاعلمى ان الانتخاب سيكون باكر . فبعيده سأقدم لابيك طلبي لاكون زوجك فأنى على ما أرى صرت كفؤا لان اخطب الى نفسى ملاك وارسو الحارس . واجل غادة فى الوجود . والان أيتها الحبيبة آن الصبح ان ينبلج فهيا بنا .

وموعدنا بعد غد في منزلكم حيث أتقدم طالبا يدك .

— ساعدك الله ايها الحبيب فى انتخابك وقرانك . دعوة صادرة من قلب يحبك ويهواك والان الى الملتقى .

أفترقا فسار سوبيسكى الى منزله مخترقا طريق جونسكى. فوجد جماهير الشعب ترد زرافات ووحدانا. فعلم ان الانتخاب أيقظ الشعب وان ذلك الحيوان كما يلقبه اخوانه النبلاء قام ليطالب بحقوقه المهضومة .

# الفصل الثامن

## — الانتخاب — ( سعادة الامة بعدل الامير )

أشرق فجر يوم الثامن من شهر فبراير سنة ١٦٧٦ وسكان وارسو لم يغمض لهم جفن . فقد قضوا ليلهم فى احتفالاتهم بانتصار سوبيسكى على الاتراك وأنهاء الحرب بسلام كما كان يود كل محب لوطنه .

وقد زادهم يقظة على يقظة ان فى الغد سينعقد الديت

لانتخاب ملك على بولاندا ليبتدءون حياة جديدة غير حياتهم الاولى.

حياة متعلقة بذلك الذى سينتخبونه فأن كان من أولئك النبلاء المتشبثين بعاداتهم القديمة كميخائيل ذلك الملك الضعيف لارادة . المسلم اموره الي نبلاء أضعف منه رأيا وأقل عقلا فأنهم ولا شك ملاقون حياة تبدأ بالاستبداد وتنتهي بالموت حياة يقضونها تحت نير الظلم يستغيثون ولا من مغيث

أما اذا انتخب رجل من رجال الامة المحبين لخيرها . الساعين لمصالح الشعب . الساعين فى تقويض اركان الظلم . وأقامة معالم العدل فأنهم بلا شك سيحيون حياة طيبة يكون لبولاندا منها الشطر الاوفر .

وعلى هذا فقد كان امر الانتخاب مهما جدا لدرجة ان وارسو ازدحمت بالوافدين من القري والضواحى ليشاهدوا انتخاب مليكهم الذى عليه تتوقف سعادتهم أو مصيبتهم .

سار الشعب كالسيل المنهمر فكان طريق جونسكي يموج بذلك البحر الزاخر . المنتظر نتيجة الانتخاب بفروغ صبر .

وكان النواب يفدون كل بعربته فيفتح له منفذا فى ذلك البنيان المتماسك الى باب المجلس فيصعد .

دقت الساعة النصف بعد الثامنة فأقبلت عربة كان الراكب فيها ذلك الرجل العظيم « جون سوبيسكي »

فما رآه الشعب حتى افتر عن فغر باسم وصاح قائلا .

« ليحي سوبيسكي » ، « ليحي مليك اليوم » « ليحي منقذ الوطن » « ليسقط الظالمة » وهكذا صار جون سوبيسكى كالعروس يزفها الشعب الي ان وصل الى باب المجلس فصعد وهو يقول ( مليك اليوم ياليتها تحقق فأقوم بأمتي ) ومن ثم اكتمل نظام الجلسة فنادى مناد بالانتظام .

وقف الكنت سمولنسكي فقال

ايها الاخوان

ان قضيتنا اليوم قضية امة . بل قضية شعب يصيح طالبا مكا يضع ذلك التاج على رأسه . فليكن الترو قائدنا . والاطمئنان رائدنا .

مستقبل الامة بيدكم فانتخبوا من ترون فيه الكفاءة لان

يتولي قيادتنا وليضع كل منكم رأيه في ورقة ويقذفها داخل هذا الصندوق .

وما انتهي الكونت من خطابه حتى فتح باب القاعة عنوة ودخل رجل لابس لباسا يدل على انه احد العمال من الشعب فأدار وجهه ثم استقر نظره اخيراً على رئيس المجلس الكونت سمولنسكي فقال له

ايها الكونت ويا ايها النواب

انا ان تصديت للكلام هنا في هذا المكان اى حيث لا يدخل الى النبلاء والنواب فانما انساق اليه بقوة الواجب لان اطهر سمعة الشعب وشرف الامة التي انا منها

وان هذا المجموع الواقف تحت نوافذ المجلس منتظر بفروغ صبر ان ينتخبوا ما قد انتخبه هو ايضا

انعرفون ياحضرات النبلاء من هو؟ انه اوفدني لاقول لكم انه انتخب ذلك الذى انقذ بولاندا . ونجاها من عدوها المخيف وكان في كل وقت نظير صداقته للشعب والامة . انه جون سوبيسكي ايها السادة

وفي الوقت نفسه سمع من تحت نوافذ المجلس اصوات كهدير الامواج وهي تصيح « ليحي جون شوبيسكي » « ليحي مليك بولاندا »

وكان العامل يتكلم ويعلن هذه الاقوال . والشمم ظاهر على وجهه مشوب بالحياء والشرف وهو يتكلم ببساطة . الى أن قال

والجيش ايها السادة مقر على انتخاب سوبيسكى اذ كيف لاينتخبه وهو قائده الذى كان له الفضل الاكبر فى انتصاراته الاخيرة

وانا انحى تاركا لضميركم الحر ان تساعدوني انا مندوب الشعب الذى به حياه الامة في تحقيق فكرته .

وهنا قام الكونت رئيس المجلس فقال

أيها الرجل بل يامندوب الشعب

اعلم ان الانتخاب سيكون سريا وسينتخب باغلبية الاصوات فقل للشعب ان يطمئن فان الحق سيجرى مجراه .

والآن ايها الاخوان ابتدأوا في الانتخاب فان الوقت

قد حان لان يجلس على عرش بولاندا أمير يقودها لان تكون مملكة حرة عاملة وقد نطق الكونت بكلامه هذا وهو مطمئن على مركزه فانه علم ان الشعب فى جانب سوبيسكى والعاقل من اتخذ الكفة الراجحة

كتب كل نبيل ما يريد فى ورقة وقذفها في الصندوق . وابتدأ الرئيس يفتح الاوراق.

فنال الاغلبية جون سوبيسكى اذ نال ١٢٣ صوتا . ونال الكونت تيروفسكي اغنى اغنياء بولاندا ٩٢ صوتا اما الخمس والاربعين الباقين فكانوا متفرقين بين النبلاء الآخرين .

وفى الحال اطل الكونت سمولنسكى من شرفة المجلس ونادي الشعب قائلا « تم الانتخاب وصار سوبيسكى ملكا على بولاندا .

وفى هذا الوقت انتشر الخبر في وارسو انتشار الهباء فقامت لهذا الخبر وقعدت والبولانديين يصيحون صياح الجذل الفرح المستبشر بالمستقبل . كأن الله ضمن لهم السعادة و لم يدروا ما خبأ لهم الحظ فى صفحات كتابه.

تم الامر كما اراد الشعب وتوج سوبيسكى ملكا على بولاندا ولم يلبث ان اعلن رغبته في اتخاذ قرينة له تشاركه سعادة الحياة وان يتقدم له الكونت سمونسكى ليخطب ابنته صوفيا.

فكان فرح الشعب في هذا الوقت مضاعفا فقد اقترن سوبيسكى بصوفيا ملاك وارسو التى يحبها الشعب من كل قلبه. ويريد لها الخير

اماعن يوم اقترانهما فلاتسل عن فرح الشعب وحبوره بهما.

وعلى كل حال فان سوبيسكى نال ماتمنى واقترن بصوفيا فابتدأ يكد لسعادة مملكته. وكيف لا وهو مدين لها بحياته وعزه وشرفه. ونجاحه فى غرامه.

كيف لا يكد ليرقيها وسعادتها مرتبطة بسعادته. اذا سقطت سقط. وان ارتقت ارتقى. والملوك باممهم. فكان سوبيسكى في حياته مثالا للملك العادل المحب لرعيته. المتفانى فى احيائها. المرخص حياته وكل ذلك فى سبيل ارتقائها

اما الشعب فقد كان في مدة حكمه غارقا في الرفاهية والعز لا يقاسي آلاما كالتي كان يقاسيها في الزمن المنقضي فقل النضرائب والجبايات . وسعى سعيه المشكور في اقامة جيش يدافع عن المملكة وحدودها .

واقام على ولايات مملكته ولاة ممن علي مشربه اتخذوا العدل ديدنا لهم فسعدت البلاد واستراح الشعب وكنت اذا جلت في بولاندا لا تسمع الا ايات المدح تنظم عقودها في ذلك المليك الذي لم يترك لحظة تمضي من حياته دون ان يسعى ليريح امته ويهيأ لها لان تكون مملكة قائمة برجالها .

وانا اذا كنا نريد مثلا للحياة الطيبة فأن حياة سوبيسكي كانت خير مثال .

فقد كانت حياته المنزلية مثال الدعة والسكون . وانه ليغبط على ما هو فيه كما قال « قاسم امين »

اذا كان هناك انسان جدير بالحسد فهو الزوج المحبوب

اما حياته الخارجية فكانت نهم الحياة اذ لا خير من ملك ارتكز عرشه على القلوب . وسوبيسكي ذا عرش ثابت بحبه

شعبه وجنده وعلى هذه الحالة استمرت بولاندا ترتقى تحت أمرة تلك العائلة الكبيرة فكانت بين الممالك التي يخاف جانبها الي ان وقعت تلك الحروب الكبيرة بين تركيا وروسيا فكانت بولاندا مرسحاً للخراب اذ لا ويل اكبر من الحرب .

فكان لابد من التهامها وحيث ان كاترين كانت تري الممالك الاوربية فاتحة عيونها فشاركت معها النمسا والمانيا

وهكذا تعاون الثلاثة على ابتلاع بولاندا ومحو اسمها من عالم الوجود واضاعة اثارها من الدنيا .

ولم ذلك ؟

لانها وقفت في سبيل احداهن فضربتها الضربة القاضية .

وانما كان ذلك لان القائمين بالامر فيها كانوا من امثال ميخائيل ضعاف الارادة فوقعوا ولم يكن هناك رجل كسوبيسكي يقود جيشا كجيشه سنة ١٦٧٦

وعلى هذا كانت نهاية بولاندا فمحت اثارها وراحت ضحية الجشع الاستعمارى . والطمع الانسانى وتألبت عليها ثلاث دول من خيرة الدول التى تتشدق بادعاء المدنية

والبر بالانسانية فأماتتها

ايه بولاندا : تأكدى ان لك في قلوب المحبين الحقيقيين للانسانية اثرا لا يمحى . وذكرا لا يبلى ما كر الجديدان وما هبت الصبا

# التقسيم الاخير

## ماريا وكاترين وفريدريك

أتى على بولاندا حين من الدهر بعيد حديثنا الاول عنها فما لبث ان اختل نظام الامور فيها . وقام كل نبيل في قصره كانه ملك متوج يدبر ارضه كانه سيد العالم المطلق

اما سكان مقاطعته فكانوا كالعبيد يمثل بهم تمثيلا فظيعا كانه خالقهم أو أكثر

وعلى هذه الحالة صارت بولاندا الى الفهقرى خطوة كبيرة ورجعت الى الوراء شوطا كبيرا

اما ملكها فقد القى مقاليد اموره الى وزرا لاهم لهم الا الحصول على الوظيفة حتي اذا تم ذلك لهم تمسكوا بأهداب التزلف والتملق للملك محبذين كل عمل مقرظين لكل مشروع سواء اردى البلاد او امانها .

وهم يكنزون الذهب اكواما فكانت الحالة تشبه تلك التى كانت

تركيا عليها ايام رب القسطنطينيه . مشبع الحوت من لحوم البرايا . نزيل سلانيك عبد الحميد خان .

وفي هـذه الآونة كانت دول اوروبا واقفة لهـا كالسنانير تنتظر وقوع الجزذ لتقتسمه .

قال جمال الدين الافغانى للسلطان عبد الحميد يوما « ياأمير المؤمنين ان الحيوانات التى تأكل لاتؤكل »

ويالها من كلمة جمت فأوعت من تحميح الحكم ما لو فقه له عبد الحميد لبقى للآن متربعا على عرش الخلافة .

وعلى هذا النسق وقعت بولاندا فان الدول لما علمت انها ضعيفة الجانب . ذليلة القدر . لايمكنها حماية نفسها بجيش يدافع عنها ويزود عن حوضها . اجتمعت ثلاثة منها فقسمتها بينها كقطعة اللحم تنهشها ثلاث كلاب كابه .

اما هذه الدول فقد كانت روسيا وعلى رأسها كاترين الثانية التى يقول عنها المؤرخون انها روح نابليون تجسمت في جسم امرأة .

والمانيا وملكها فريدريك الاكبر خير من تولى ادارة الأمر فيها بل اعظم ملك تربع على دست امورها

والنمسا ومليكتها ماريا تريزا التى كانت من خير الأميرات يذكرها التاريخ بكل خير لدفاعها امام فريدريك فى الحروب السليسية

وقد استوزرت كاترين وزيرها تومكين الذى كان اول من أيقظ فى فكرتها محاربة الدولة العلية .

فاخذت كاترين فى حربها هذه جميع الولايات التى فى شمال البلقان حتى انها كادت تقص من كثرة ابتلاعها الولاية اثر الولاية

فوجب اذا عليها ان تشركها بتلك الممالك الاخرى الواقعة لها بالمرصاد ليمكنها ان تنال مآربها فى جهة اخرى «اطعم الفم تستحي العين»

فعقدت لذلك محالفة ثلاثية سرية . ضمت واياها النمسا والمانيا فقسمت بولاندا التقسيم الذى انتهى بابتلاعها وضياعها .

ان ألعن تلك المحالفات التى يعقدها اولئك الاوغاد السفلة المستعبدين الانسان . المقرين على استبداده . الذين يشيدون دولا لتظلم على جدار من دماء الانسان وعظامه .

بأى حق أكون انا فى منزلى . وبكون حالي مختلا . ونظامى مختلا فيدخل الغريب بجرافته مدعيا انه يريد اصلاح ذات البين .

ماله ومالى . لم لايدعنى مستريحا بعيداً عنه وعن سفالته وتعديه ان يقول ان ذلك باسم الانسانية والمدنية . ورعاية الحقوق .

الا لعمرى ان الانسانية لبريئة من قوم ادنياء يدخلون بيوت غيرهم بدعوى انهم يريدون اصلاحها .

خير لهم ان يتركوا البيت لصاحبه . والبلاد لاهلها . والاوطان لسكانها . ولا يدخلونها فيعكرون عليهم صفو الحياة ولذة المعيشة . يدخلونها وكأنهم رسل عزرائيل يتقدمهم الموت . ويسير بين أيديهم الردى .

مالك انت أيها الاجنبي النازح ليصلح وطنا غير وطنه . المتطلع لبلاد غير بلاده . الا خير لك ان تهتم ببلادك قبل ان ترحل الى اخرى لتسلب

اهلها الراحة او تحتلها باسم الانسانية وهى براء منها .

لنرجع الى حديثنا الاول اذ تركنا بولاندا تقسم كانها سقط المتاع .

قام من وسط البولانديين جورج كوسكيوسكي ذلك الرجل الذى يلقبه التاريخ بالبولاندى الوطنى الحر .

وانه لجدير بهذا اللقب وأكثر فانه قام فى وجه ثلاث دول كبار تعتبر من اعظم دول الارض مكانة . واستمر يجاهد ويناضل لا يعرف اليأس الى قلبه سبيلا . فكأنه كان متحققا ان الله ناصره فلم تتزعزع ثقته بنفسه وبجيوشه .

ولكن الذى اسقطه ودك عزيمته هو مقاومته لثلاث دول مرة واحدة فكان كناطح صخرة ليوهنها .

وعدا ذلك فان سعي روسيا المتواصل فى ضم القطعة التى اصابتها من التقسيم كان قاطعا لآمال جورج وامانيه .

فقد انتشر العمال الاداريين الروسيين فى انحاء المملكة وزاد استبدادهم وعم حتى ضج الآهلون لذلك وقاموا كلهم يتألمون لحريتهم المفقودة ولكن اليد الاستبدادية كانت شديدة الوطء فضربتهم بيد من حديد اخمدت بها انفاس تلك الوطنية المستعرة . وأطفأت بحر انفاسها ذاك اللهيب المتقد .

ولكن الوطنية الحقة لا تمحى ابدا ولو عاكسها الدهر . وناوأها الزمن . ولا ريب فى ذلك فانه واجب محتم يجب على الانسان حفظه وكتابته بحروف من نار خصوصا اذا كان وطنه مهانا ضاعت حقوقه .

ومن هذا الصنف كان وطنية كوسكيوسكي فانه لبث يناضل حتى

قبض عليه فى مؤامرة فقتل برصاص الروس وراح ضحية حب الوطن

ولا زال البولانديين يقاومون الى اليوم حكم اولئك الممالك الثلاث ويجتهدون فى التخلص من استبدادهم . ولكن لم يحن الوقت الذى تستقل فيه بولاندا المعدومة الذكر . والتى سوف تسمع عن قريب بانها نهضت فزعزعت القيصر فى سان بطرسبرج . والامبراطورين فى برلين وفينا .

فيا أيها البلد الامين الذى قضى عليه الانسان بالزوال وحكمت عليه سنة الجشع الاستعمارى بالضياع . فذهب ضحية لسفالة الانسان ودنائته . ثيقن ان ذكراك لا ينساها انسان . ولا يخطر لك ان تلك الحوادث التى انتهت بانمحائك يطويها عالم النسيان وان البلاد المستعبدة اذا ذكرت مصيبتك هانت مصائبها .

وانت ياروح جورج كوسكيوسكي خير وطنى مثل على مرسح الفضيلة دوره باتقان تأكد ان حبك وذكراك راسخة فى الاذهان . لاتبلى ماكر الجديدان .

وكيف تفنى وانت قدمت نفسك قربانا لوطنك المقدس . وفدى لبلادك المحبوبة . فكنت خير مثال يتبع في الوطنية . وصار الكل يلهج باسمك والشكر قرينه . والمدح خدنه .

اى كوسكيوسكي نم في قبرك واسترح فقد صنعت الواجب وزيادة جاهدت الى ان قتلت فى سبيل حب الوطن

فان ذكر الوطنيين فانك في مقدمتهم . وان عد الشهداء فانت فى أولهم فيا أيها القائمون فى وجوه الاعداء . المتقدين حمية لانقاذ اوطانكم

من البلاء . اذا اردتم مثالا صادقا تتخذوه لكم فى اعمالكم آية وشعار . تخذوا حياة جورج كوسكيوسكى فانها ذخيرة من خيرة الآثار . ولقنوها أبناءكم من بعدكم . وزروهم يحفظونها في قلوبهم . لتعلمهم حب الوطن وكيف يكون . بل كيف يسهل فيه شرب كأس المنون .

ودانتون يقول « اذا اردت ان تتغلب فأقدم ثم أقدم ثم أقدم » ومصطفى كامل كان ينادى « لامعنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة » فجاهدوا فى سبيل بلادكم . فان مصر تناديكم ان اعملوا على خيرها وكونوا يدا واحدة حتى يمكنها ان ترتجى منكم خيرا فتستقل استقلالا مشهودا يذكره العالم والتاريخ والله يجازى كل على قدر عمله

(تمت)